

عبد العزيز الصقعبي

اليوم الأخير لبائع الحمام

رواية



9.5.2013



اليَوْمُ الْأَخِيرُ لِبَائِعِ الْحَمَامِ

رواية

عبد العزيز الصقعي



اليَوْمُ الْأَخِيرُ لِبَائِعِ الْحَمَامِ

الطبعة الأولى

1433 هـ - 2012 م

ردمك 2-937-84409-978-2

جميع الحقوق محفوظة

أثر



للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية - الدمام

تلفون: 00966505774560

الموقع الإلكتروني: www.darathar.net

Email: info@darathar.net

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر

﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي ...﴾

قرآن کریم

«ما رأيتُ أعجبَ من هاتِفِ الحمامِ: سلم فناح، وصمت
وهو مكسور الجناح؛ إنما الشَّوقُ لمن يذكرُ في كلِّ حينٍ، ولا
يذهلهُ مضيُّ السنينِ».

صبح الأعشى: القلقشندي

أَنْتَ الْأَوَّلُ
أَنْتَ الْأَعْمَقُ
كُلُّ الْعَالَمِ يَقْبَعُ فِي الْأَخِيرِ!

(1)

«هل تسمح لي؟».

«سيتغير اسم الولد قليلاً».

كان مانع ينتظر ردّاً من والده، لاسيما وهو الذي كان يرفض أن يسمي أحد أحفاده باسمه إلا بعد موته، ولكن بعد إصرار الجميع وافق على مضض، ليكن اسم حفيده البكر «دخيل الله» على اسمه، وهما هو مانع يرغب في تغيير الاسم.
- هو ولدك.

- وأنت جده والرأي الأول والأخير لك.

- ماذا ستسميه؟

- سيكون اسمه «دخيل» بدلاً من دخيل الله.

تداخلت أصوات بائعي الزل والسجاد ومخرجي البشوت والعباءات الرجالية، وفهم مانع أن صمت أبيه يعني الموافقة على قراره. ساعد والده في ترتيب مجموعة من بشوت الوبر بينما كان صوت

ابن ماجد يعلن دخول صلاة الظهر في جامع الرياض الكبير.

صمت دخيل الله الضبادي إحياءً برضاه على ابنه مانع، وإحساساً بأن ذلك الحفيد سيُضيف بعض الفرح لهم، فرح لشعوره باستمرار نسله، لتكبر شجرة العائلة وتورق.

دخيل الله الضبادي، ابن الجزيرة العربية، ابن الصحراء والصمت. قيل له أنه وُلِدَ في الوقت الذي كان الملك عبد العزيز متجهًا شرقًا ليتمكّن بعد ذلك من دخول الأحساء بعد حملته على بعض القبائل في الصفوية وأبي دخن، لا يعرف مطلقاً أيّ تشعب أو امتداد لعائلته، فأسرة الضبادي أشبه بالعشبة البرية التي نبتت في أحد أحياء الرياض القديمة، وفي زمن سابق شعر دخيل الله أنه شبه وحيد بعد موت والديه وأخيه رزق الله، وها هي السنوات تمضي، يتزوج ويصبح له ثلاثة أبناء وثلاث بنات، ذاكرته تحمل بعض تفاصيل هذا البلد، والقصائد الشعرية منحتة بعض المعرفة، تزوج من فطيمة ابنة إمام المسجد الصغير في حي الظهيرة الذي كان يقطنه، بعد توحيد المملكة بأربع سنوات، بقي في حي الظهيرة حتى أوائل الثمانينات الهجرية، ثم انتقل إلى حي الصالحية بعد زواج ابنته الكبرى سبيكة من ابن أخيه عليان بن رزق الله، الذي شجعهم على الانتقال إلى ذلك الحي.

من لا يعرف دخيل الله ويلتقي به لأول مرة يقرر، بكل تأكيد، أن ذلك اللقاء سيكون الأول والأخير، فهو يتسم بحدّة خاصة، يغضب سريعاً، لا يتوانى مطلقاً عن التفوّه بصراحة عما يراه من عيب، لا يعرف مطلقاً المجاملة، دائماً يردد: «أنا اللي في قلبي على لساني»، هذا الأمر حدّ من قدرته على اكتساب الثروة، وحدّ أيضاً من علاقاته بالآخرين، ربما عليان ابن أخيه هو الذي عرف كيف يعامله، فأصبح قريباً منه، إضافةً إلى ابنه مانع الذي ورث عن أمه الطيبة والمجاملة الشديدة، ولو على حساب نفسه فحقق بعض التوازن في تجارتهم. هذه القسوة في التعامل مع الآخرين أصبحت سمةً خاصةً لدخيل الله الضبّادي، فعندما يأتي رجل ليشترى أحد البشوت أي نوع من أنواع العباءات الرجالية، من دكانهم الصغير، يقول له سعه المحدّد، مثلاً: ألف ريال، وحين يطلب المشتري تخفيض القيمة يرد عليه بحدّة: «تشتري بألف وإلا مع السلامة» وهذه المقولة أحياناً بها شيء من التهذيب، فربما تسمعه يقول: «عطنا مقفاك» أو «مع اللي ما يحفظك»، لذا فقد بدأ كثير من الناس يتحاشى مجادلته، أو إثارة غضبه، ولو غضب سيسمع الجميع سيل الشتائم والدعوات الخاصة به، مثل: «عساك للساحق والماحق والبلا المتلاحق اللي يسحقك ويمحقك ووين ما رحت يلحقك».

مثلث بثلاثة أضلاع

مثلث مختلّ الزوايا

ثمة زوايا حادّة وبعض الزوايا منفرجة

(2)

مانع وعليان: الأول ابن دخيل الله الكبير، والآخر ابن أخيه وزوج ابنته، أعمارهما متقاربة، وهمومهما مشتركة. كان مانع يرتاح كثيرًا لابن عمه عليان، يحدثه عن بعض مشكلاته الخاصة، وما يعاينه من نزق والده وصعوبة تعامل الآخرين معه، ومع ذلك يرى أنها طبيعة من الصعوبة أن تتغير؛ أخبر مانع ابن عمه وزوج أخته عليان بموافقة والده على تغيير اسم ولده إلى «دخيل».

عليان يعرف مثل الجميع أن مانع هو يد دخيل الله اليمنى، سنده.

أسماء (مانع)، وكان كذلك هو الابن الأكبر الذي لم يترك والده مطلقاً، اكتفى بما حفظه من القرآن الكريم وقرر مساعدته في محل الزل. كان صوته قوياً وهو يحرج على أفخر السجاجيد الرومية، والبشوت، ومشالح الوبر. وكان الأب يسعد بما يكتبه من قصائد لشعراء عرفهم وشعراء بحث عنهم وتأكد من نسبة القصائد لهم. زوجه صغيراً، وبعد زمن امتلاً بيته بما وهبه الله من أبناء وبنات من زوجته الأولى، ومن الثانية أيضاً.

أما عليان فهو الرجل الثاني في حياة دخيل الله هو ابن له وإن لم يكن من نسله، فمئذ زمن طويل قرر أن يكون عليان بن رزق الله زوجاً لابنته الكبرى سبيكة. كان يعجب بتلك الرجولة المشوبة بالحكمة، عرفه ابناً وحيداً لأخيه الذي غادر الحياة مبكراً، نشأ أول عمره يتيماً عند زوج أمه، وها هو الآن رجل وقور له عدد من الأبناء والبنات. مانع أبو دخيل، وعليان أبو راشد قريبان جداً من دخيل الله، ربما هذا القرب ليس لكون مانع هو الابن الأكبر وعليان ابن أخيه وزوج الابنة الكبرى فقط، ولكن ثمة تشابهاً بينه وبينهما، وثمة توافق، وربما تكامل، فهؤلاء الثلاثة يمثلون رأس الهرم لعائلة كبيرة من أبناء وأحفاد وأبناء عم وأبناء خال، والبقية يكملون ذلك المثلث، وإن اقترب للقمّة كل من عاشق ونوح ابني دخيل الله، ولكن يبقى لكل واحد حكايته الخاصة التي قد تبتعد قليلاً عن عالم دخيل الله الضبادي. لتكون جزءاً من سيرة طويلة بدأت مع ولادة دخيل الله الضبادي، وأكملها دخيل بن مانع بن دخيل الله الضبادي. بين الجد والحفيد سيرة قد يعرفها البعض، في حي يُسمّى بالصالحية، في الجنوب الشرقي من وسط الرياض. هذه الرياض الشاهد الصامت لأناس يمارسون حياة

خاصةً في أحيائها، بعضهم لم يغادر أعماق المدينة، والآخر قذفته السنوات إلى الجهات الأربع شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً، فاختار كل اتجاه طبقة خاصة.

هذه الرياض المملوءة بأسرار الناس تبقى مكاناً يحتضن السادة والعبيد، الأغنياء والفقراء، الناجحين والفاشلين، وبكل تأكيد تحتضن العديد ممن آثر أن يكون على هامش الحياة، يولد ويموت دون أن يحرك ساكنًا في عالم يموج بالمتغيرات. قد تختزن الرياض سيرة البعض، ولكن من المؤكّد أن سيرة آل الضبادي تحكي قصة بعض الناس، ولكن قد لا تضيف شيئًا لحكاية مدينة.

لزهرة النرجس حكاية أخرى
لكل من تأمل وجهه في المراة
حكايات كثيرة
حكايات أخيرة

(3)

قد يكون الاسم عبثًا على صاحبه، وقد يحدد بعض سماته، وقد يكون عبثًا على الآخرين. هذا ما حدث لابن الثاني لدخيل الله، الذي أسماه (عاشق) على اسم شاعر سمع قصيدته ذات مساء فأعجبته، هذا العشق خصَّ به جزءًا كبيرًا لنفسه، فأصبح الابن أنانيًا يريد أن يمتلك كل شيء. فمِنذ أن بدأ عاشق يعي أن له اسمًا مختلفًا عن الآخرين اختط لحياته نسقًا مغايرًا لكل من حوله، وبالذات أخوه مانع، لذا قرر أن

يكون العاشق والمعشوق. اعتنى بهندامه، تعبت أمه «فطيمة» من ذلك الهوس بالنظافة والتأنق. وأطلقت عليه أخته سبيكة اسم «الأفندي». ربما تتوقع أن الأفندية هم الذين يتَّسمون بالأناقة.

كان له خزانة ملابسه الخاصة، وقد سعى بكل جهده أن تكون له غرفته الخاصة فيما بعد، لم يعتمد عليه والده كثيرًا، وبسبب ذلك لم يشارك أخاه مانع العمل في محل بيع الزل والبشوت، الأمر الذي ولّد لدى دخيل الله الإحساس بأن (عاشق) كان من المفترض أن يكون ولد شيوخ وليس ولد دخيل الله الضبادي، لذا فشخصية عاشق وهي تنمو في داخله تبقى غريبةً عن حي الظهيرة، وبالتأكيد حي الصالحية، فالأفندي أو ولد الشيوخ يحتاج إلى قصر وليس بيتًا شعبيًا يقطنه مع أخوين وثلاث أخوات وأم تبحث عن رضاه وسعادته حتى كاد أن يسمى «دلوعة أمه»، وأب شغلته دنياه لكسب الرزق فلم يُعره أدنى اهتمام، ولم يعتمد عليه ليساعده في محل الزل بالديرة.

اكتفى بما حصل عليه من تعليم بسيط، ليلتحق بعد ذلك بمعهد للتدريب على استخدام الآلة الكاتبة، ولكونها تعطي شيئًا من التميّز أتقن الكتابة عليها بسرعة أعجبت من شاهده وهو يطبع الخطابات والتقارير، ليجد وظيفة ناسخ في إحدى الدوائر الحكومية، وليكوّن بعد ذلك علاقات جيدة مع بعض الموظفين الذين أعجبوا بهيئته وحققوا شيئًا من غروره، وليتعرف من خلالهم فيما بعد على عليّة القوم والأثرياء، وليجد بعد زمن قصير بغيته عندما سنحت له الفرصة ليعرض خدماته على سويّر النسيجان بعد أن أعجب بجرأتها وثروتها، حين شارك بشهادته مع صديق له على شراء أرض لها، هذا الإعجاب تحول إلى زواج من امرأة تكبره بعشر سنوات، ولتبدأ مرحلة جديدة

في حياة عاشق بن دخيل الله الضبادي.

«عاشق سوّير» كما أسماه والده دخيل الله بعد زواجه بسنة، عندما سقط دخيل الله عند مدخل البيت وكُسِرَت ساقه، ومكث قرابة الشهر دون أن يزوره ابنه عاشق لارتباطه بمجموعة من الأعمال لزوجته داخل وخارج مدينة الرياض، وقد تقبّل هذا الاسم بصدر رحب لإحساسه بخطئه ولمعرفته بوالده. وقد جعل جهده في تنمية ثروة زوجته وتنفيذ أوامرها، الأمر الذي حقق له بعض الصيت والوجاهة في المجتمع لتنفيذه مقولة (اقرب من السعيد تسعد) فما بالكم بمن يتزوج السعيدة.

العالمُ مُتَّسِعٌ
أنا الوحيدُ
أنا أفقُ مُتَّسِعٌ

(4)

من يعرف أبناء دخیل الله يعرف أن وضع نوح في الأسرة مختلف تماماً، فمع مولد نوح كانت اللبنة الأولى لحركة عدم الانحياز التي وضعها جمال عبد الناصر وجوزيف بروز تيتو وجواهر لال نهرو وشواين لاي وأحمد سوكارنو، في مدينة باندونج في إندونيسيا. وقتها لم يسمع دخیل الله مطلقاً بهذا الاجتماع، ومن المؤكد أنه لا يعنيه مطلقاً وجود قوتين عظيمتين في العالم، وهنالك انحياز من بعض الدول الصغيرة والضعيفة لإحدى هاتين الدولتين، ربما ما

أسعده هو وجود مانع في المحل لمساعدته، وأنه بدأ يعتمد عليه في البيع والشراء، إضافةً إلى أن الله مَنَّ عليه بولد ثالث ليختار له اسم نوح، هذا الاسم ليس له علاقة بالسياسة مطلقاً، فقد اختاره دخيل الله بعد سماعه لقصة نوح أثناء تفسير إمام المسجد ووالد فطيمة لبعض آيات القرآن الكريم، ولكن بعد سنوات حقق نوح بعض مبادئ عدم الانحياز بزواجه من امرأة أمريكية أمها ذات أصل صيني، وتزويج ابنته لرجل يحمل الجنسية الكندية وهو من أصل سوري.

نال نوح الدكتوراه بعد أعوام حافلة بالدراسة والعمل، فهو منذ صغره يبحث عن تميّز، فعندما تخرج في الصف الثالث المتوسط وعمره لم يتجاوز الثمانية عشر عامًا، قرر ترك الدراسة والاتجاه إلى العمل. عمل في وزارة المواصلات، وبعد أربع سنوات وجد أن الشهادة الدراسية التي يحملها لن تحقق له ذلك التميّز الذي ينشده، رغم حصوله على مرتب شهري معقول، واصل دراسته ليكمل الثانوية العامة، ثم ما لبث أن وجد فرصة ابتعاث لدراسة البكالوريوس في الولايات المتحدة الأمريكية، كان سعيداً بذلك، لاسيما وأنه سيتقن اللغة الإنجليزية، إضافةً إلى أنه سيتعرف على عالم جديد.

حطّت به الرحال شمال غرب أمريكا، ليدرس في إحدى جامعات سياتل، ليحصل على الشهادة الجامعية بعد ست سنوات، أثناء ذلك ارتبط بـ «سيتا» التي كانت تعيش مع والدتها الصينية والتي أصبحت فيما بعد مواطنة أمريكية، وبعيداً عن والدها الأمريكي الذي لم تره طيلة عمرها، سيتا كانت هجيناً بين الأمريكي والصيني، مما أكسبها جاذبية خاصة، وهذا ما جعل نوح يتعلق بها، ويقرر مباشرةً كشرقي الزواج بها، لتُنجب له ابنة أسماها «فطيمة» ليكسب رضا ودعوات

والدته، كان من المفترض أن يعود بعد حصوله على البكالوريوس، ولكنه شعر برغبة في البقاء وإكمال الدراسات العليا، لاسيما وتقديره الدراسي يؤهله لذلك، حاول أن يعمل ويكمل دراسته على حسابه، لكنه اضطر أن يعود إلى المملكة مع أمل بالحصول على بعثة أخرى، مصطحبًا معه زوجته وطفلته مع وعد لوالدتها بالعودة إلى أمريكا حال إكمال إجراءات البعثة.

* * *

فرحت فطيمة كثيرًا بحفيدتها التي تحمل اسمها، وفرحت أكثر عندما أخبرها نوح بأن سينا أعلنت إسلامها، بينما كان تعليق دخيل الله عندما جاءت سينا للسلام عليه بصُحبة زوجها نوح، حين لاحظ صغر عينيها الذي ورثته من والدتها: «مسافر لآخر الدنيا على شان يتزوج هذي، لو ما تعب نفسه وراح لمكة أكيد يلقي مثلها واجد عند الحرم». كان نوح يعرف والده جيدًا، لذلك لم يغضب منه، ما أغضبه هو عدم قدرته على الحصول على بعثة لإكمال الدراسات العليا، مما اضطره إلى الانخراط في العمل في المؤسسة التي ابتعثته، ليسكن في مجمع سكني بالعليا أغلب سكانه من ذوي الجنسية الأمريكية، وكان مشروعه مع زوجته العمل لكسب مبلغ جيد من المال والاستفادة منه بالسفر والدراسة في أمريكا، عملت سينا في معهد لتعليم اللغة الإنجليزية، وأدخلت فطيمة في روضة أطفال، ثم مدرسة ابتدائية.

نوح بن دخيل الله الضبادي، عاش مع أخوين مختلفين، فمانع رجل بسيط ليس لديه طموح سوى كسب مودة الآخرين وبر والديه والاكتفاء بما يحصل عليه مع والده من مبيعات المحل الصغير، أما عاشق فعلى عكس أخيه الكبير مانع رجل يحب الشهرة والتميز، وغير

مقتنع تمامًا بحال عائلته، يتمنى أن يكون من عليّة أهل الرياض، لذا
فنوح لا يرضى أبدًا أن يكون بسيطًا متواضعًا مثل مانع، في الوقت ذاته
لا يطمح بشهرة أو ثروة كأخيه عاشق، فهو يبحث عن تميز خاص،
يرتبط بالعلم والمعرفة. وهذا أملى عليه سلوكًا خاصًا جعله القريب
البعيد من عائلته.

صفحاتُ كتابكَ بيضاء
قد لا تستطيع أن تكتبَ حرفًا واحدًا
الحروفُ قد يعجبُها ذاتَ يومٍ ذلكَ البياضُ

(5)

كان حديث أغلب الرجال عن حصار بيروت ومجزرة صبرا
وشاتيلا، ذلك الحديث كان في فناء بيت كبير يُستخدَم أحيانًا قصرَ
أفراح في حي الشفا جنوب الرياض، المناسبة زواج راشد بن عليان
من حمدة ابنة علي اللوحان شقيقة أمينة زوجة مانع بن دخيل الله
الضبادي.

دخيل الله الضبادي سعيدٌ بزواج أكبر أحفاده، اختار له بشتًا ملكيًا،
بني اللون، مزدان بخيوط زري مذهبة.

راشد سعيدٌ بهذا الزواج لأنه سيكون عديلاً لخاله مانع، إضافةً إلى أن زوجته حمدة خريجة معهد المعلمات، وتعمل في مدرسة ابتدائية للبنات في حي غبيرة، وهو باشر عمله مدرساً لمادة التاريخ في متوسطة بحي العريجا منذ أشهر بعد تخرجه في كلية التربية.

بيروت قد لا تهم أغلب من حضر حفل الزفاف هذا، ولكن هنالك من يرى أنها عاصمة الثقافة والنشر، ومن هؤلاء راشد الذي كان يحرص كثيراً على اقتناء الكتب وقراءتها، وقد جعل الغرفة الوحيدة في الدور العلوي لبيتهم الشعبي الذي استأجره بالقرب من بيت جده بالصالحية، مكتبة جمع فيها ما قدر على اقتنائه من أمهات الكتب والمصادر، وبالذات كتب التاريخ والسيرة.

كانت أمنية راشد الذهاب إلى بيروت، هذه الأمنية لم تتحقق بسبب تأجيله لمشروع السفر سنوات عديدة حتى يصبح وضعه المادي جيداً، بعد زمن استطاع أن يكون مبلغاً جيداً من المال. في الوقت ذاته وجد أنه أب لأربع بنات وأربعة أبناء، اثنان منهم توأم، والتي جعلت أسرته كبيرة ليشتري فيما بعد بمشاركة زوجته حمدة فيلا جنوب ملعب الملز.

كدح ورتابة، راشد وزوجته حمدة ترسان في آلة الحياة، في مدينة بدأت تتشكل وتوسع، هي الرياض، آلاف الرجال والنساء يعيشون بنسق واحد يبدأ من الاستيقاظ باكراً، والتوجه إلى المدارس، وتقديم درس يومي يتكرر كل عام، لا يتغير سوى وجوه الطلبة والطالبات، فليس غريباً أن تمر السنوات، دون أن يعي أحدهم أنه تحول إلى مروحة كبيرة لطاحونة هواء، تدور دون أن تغادر مكانها. ربما المتغير البسيط هو تحول راشد إلى رجل كادح يهمل الحصول على ثروة

جيدة، وهذا ما تحقق له.

* * *

بينما كانت أجهزة الإعلام تتناقل خبر اتفاق الطائف، عندها شعر اللبنانيون بالفرج بعد سنين الحرب الأهلية التي عاشها لبنان، إضافةً إلى الاجتياح الإسرائيلي، كان هنالك فرج آخر تحقق لنوح بن دخیل الله الضبادي عندما حصل على بعثة لدراسة الماجستير والدكتوراه، ودع نوح الأهل مغادرًا إلى أمريكا ليقضي ست سنوات أخرى، ليحصل فيما بعد على الماجستير والدكتوراه من جامعة سيركيوس في ولاية نيويورك، وليعود وقد أضيف إلى اسمه حرف الدال.

الدكتور نوح لم يكن كوالده حاد الطباع، لذا فالجميع يفتخرون به ويقدرونه. عالمه الخاص الذي اختاره جعل علاقته بأسرته محدودة، ووقته مشغولاً بالأبحاث والاستشارات والمؤتمرات، وعلى الرغم من ذلك كان يحرص على حضور جميع مناسبات عائلته، فهو مهما يكن ابن دخیل الله الضبادي.

* * *

راشد بن عليان أستاذ التاريخ انتقل إلى مدرسة ابتدائية في حي الزلفي ليكون مديرًا لها، استسلم كثيرًا لمتغيرات الحياة وضغوطها، اعتنى بذقنه الصغير، وبدت ملامح كرش جعلت بعض أثوابه تضيق عليه، قلّت قراءاته وامتنع بيع وشراء العقارات ليصبح شريكًا لزوج أخته الكبرى منيرة بالمحل الذي يقع في شمال الرياض، شريكه هذا الذي عرفه الناس بأبي صخر، رغم أن ابنه صخر غيّر اسمه بعد أن كبر إلى عبد العزيز. أبو صخر كان يمتنح إضافةً إلى سمسرة العقارات، بناء البيوت والفلل، ثم يبيعها بربح بسيط، حيث كانت متعته متابعة

العمل والعمال والإشراف عليهم، ومرات عديدة كان يقول لزوجته منيرة بنت عليان أن البيت الذي بينه حالياً سيكون لهم، وسيتركون بيت الإيجار في النسيم، ولكن ما إن ينتهي من البناء ويأتيه ربح بسيط حتى يبيع البيت وتلاشى أحلام منيرة وأبنائها.

حمدة لديها شخصية أقوى من منيرة أخت زوجها، لذا فراشد لا يجرؤ مطلقاً أن يقوم بمشروع ما دون استشارتها.

دخيل الله الضبادي علق ذات يوم على خلاف بين حمدة وإحدى بناته، محدثاً زوجته فطيمة بأن «حمدة فيها عرق نجاسة».

هذه النجاسة ليست ملموسة، فهي ولكونها معلّمة اكتسبت قدرة على الكلام والجدل، حتى إن من يستمع إليها يذهل منها ويقول إنها امرأة طيبة وتحب الخير للجميع، وقد يكون في ذلك بعض الحقيقة، ولكن ثمة نجاسة كما قال دخيل الله.

الصوتُ الأولُ لك

الصوتُ الأخيرُ لك

بعضُ الأصوات لا تعرفُ كيفَ تبدأ أو تنتهي

(6)

لا بد من غيوم سوداء تعكر أحياناً صفاء أسرة الضبادي، والتاريخ يحفل بأحداث جعلت وجه مدينة الرياض كثيباً، لاسيما عندما توقع الجميع أن بوادر حرب قد تطالها، وذلك حينما اجتاح جيش صدام الكويت، كان هنالك خوف من حرب كيميائية، وكانت إذاعات صدام ولندن والأغاني الوطنية تكرر ذلك الوجود، هي حقاً الحرب، الجميع يشاهد المجندين والمجنذات الأمريكان، والجميع يتداول سرّاً بيانات الشجب والرفض لوجود الأجنبي، والعالم يرغب أن تعود الكويت،

ويخاف على العراق من يوم أسود، ويخاف من العراق بأن يقوم جيش صدام بعمل طائش، لاسيما وهو ليس بعيداً عن آبار النفط.

كان ذلك في مساء يوم خميس، وكانت أسرة الضبادي مجتمعة في بيت الصالحية، كانت علامات الاستياء باديةً على الجميع، وبالذات دخيل الله، وهو يُنصت لأخبار لندن من خلال الراديو الروسي الذي أحضره عاشق له، الغائب الوحيد نوح الذي هاتفهم من أمريكا للاطمئنان على صحتهم.

كانت أسرة الضبادي كباقي الأسر في مدينة الرياض تعيش قلق الأحداث، ولكن ثمة غيومًا عكّرت سماء هذه الأسرة، فضمن الأحداث التي مرت على عائلة الضبادي في تلك الفترة، وكانت حمدة زوجة راشد بن عليان طرفاً فيها، إشاعتها بأن سوّير النسيجان زوجة عاشق بن دخيل الله كانت ضمن النساء اللاتي شاركن في مسيرة قيادة السيارات، وذلك بعد غزو الكويت، كان ذلك بحضور الجدة فطيمة وأختها أمينة زوجة مانع وبعض البنات، ومنهن خديجة ابنة مانع الكبرى التي عرف بشدة تدينها، حيث قالت حمدة إن سوّير على علاقة مع مجموعة من النساء اللاتي نزعن عن وجوههن غطاء الحياء لكونها سيدة أعمال ولديها المشغل النسائي الكبير، دعت لها الجدة فطيمة بالهداية وتمنت أن يكون الكلام عنها غير صحيح، وطلبت منهن التكتّم على الخبر حتى لا يصل إلى مسامع دخيل الله، وقد وجدتها خديجة فرصة لأن تطلب من جدتها دعوة كل بناتها وحفيداتها إضافةً إلى سوّير زوجة عاشق لتتحدث أمامهن عن خطر السفور والتبرّج، وتقرأ عليهن بعض الفتاوى ومقاطع من الكتب التي تناولت الحجاب ودعت إليه.

غضب دخيل الله كثيرًا عندما بلغته شائعة سوّير وقيادة السيارات، وقال: «صحيح إن الحرمة فيها شوفة نفس، ولكن أعرفها، تحسب ألف حساب قبل أن تقوم بمثل هذا العمل، وإلا كيف صارت تاجرة». عاشقٌ ذَهَبَ غاضبًا إلى مكتب العقارات حيث يجلس ابن أخيه راشد بعد عصر كل يوم، طالبًا منه أن يمنع زوجته حمدة، أو كما يسميها عند الآخرين أم أحمد، من التحدث عن زوجته سوّير، أو كما يسميها أم مازن، بالطيب أو الرديء، كان الكساد قد ألقى بظلاله على العقارات بسبب ظروف الحرب، لذا فقد قرر راشد مغادرة المكتب وطلب من خاله الذهاب إلى زوجته أم مازن، وسيأتي مع أم أحمد، وستعذر عما بدر منها، وقد كان رد حمدة صارمًا بالرفض.

لذا فقد أرجأت التحدث معها حتى ذلك المساء الذي دعتهن فيه الجدة فطيمة، لتقول حمدة لسوّير: اسمعي يا أم مازن، الكلام الذي قلته عنك وصلني من بعض الناس، تسمعيه من عائلتك أفضل من أن يتناقله الناس عنك».

أرادت خديجة تهدئة الأمر لتكسب أكبر وقت لتقديم محاضرتها، ولكن ارتفع صوت سوّير لتقول:

- اسمعي، واسمعوا جميعًا، أنا أعرف نفسي وواقعة منها، الله أعطاني وكثّر، عندي عملي وعندي الكثير من الموظفين والموظفات، لا يوجد أحد مسئول عني إلا زوجي وعيالي، أجلس، أسافر، أقابل أحدًا، ليس لكم دخل أبدًا.

- يعني بصراحة أنت شاركت مع مظاهرة قيادة السيارات؟
«أطلقت هذا السؤال أمينة زوجة مانع؛ أملًا أن تُجيب بالإثبات حتى تتفاخر بها بين النساء».

- للأسف: لا.

- تقولين للأسف، إذا أنتِ راضية عن فعلة أولائك النسوة؟

قالت ذلك خديجة بما يشبه الاستنكار.

- أنا لست في موقف الهجوم أو الدفاع عنهن، أنا الآن أتحدث

عن نفسي، أنا سوّير بنت مبارك النسيجان، لا أحب أن يتعرض أحد لي أو لعيالي وزوجي، علاقتي بالله واضحة، وأعرف ماذا أعمل، أتمنى أن نحترم بعضنا، ولا داعي للكلام يا أم احمد، فكل واحدة تعرف حدودها.

غادرت سوّير المكان بعد أن استأذنت من الجدة فطيمة ووعدها بأن تنسى ما حدث وتبدأ حياة جديدة مع الجميع، وبعد أن صافحت حمدة لتأكيد حسن النية.

ربما المشروع الذي أجهض تلك الليلة محاضرة خديجة، فالجدة طلبت من حفيداتها بعد مغادرة سوّير إحضار بعض الدفوف. بدأن يقرعن عليها ويغنين بعد أن أسمعتهن بعض القصائد.

سمع الرجال صوت الدفوف، وقال دخيل الله: «أصحت» لم يكن هنالك غيوم أو مطر ذلك اليوم، فعلم الجميع أن الغمامة انقشعت، وساد الود والصفاء بين النساء. وعلق عليان: «الله الهادي». بينما مسّد سعد بن عليان لحيته الكثّة وغادر المجلس مكتئبًا.

لم يكن هذا الاكتئاب بسبب عودة العلاقة إلى طبيعتها بين النساء، ولكن لكون أخته سعاد أخبرته أن ابنة خاله خديجة التي يرى فيها الكثير من الخير والصلاح ستتكلّم عن السفور والحجاب، وحيث إن صوت الدفوف سُمِعَ بعد هدوء أصوات النساء فذلك يعني أن المحاضرة لم تتم.

لاحظ دخيل الله مغادرة سعد المفاجئة للمجلس بعد سماعه صوت الدفوف، أوماً بيده لعليان وقال له: «قل لولدك، اعقل، ليش ما يبي الوناسة؟» أحسَّ عليان بغصة، لم يستطع أن يرد.

قد تحفرُ بئرًا

قد تحفرُ قبرًا

قد تكونُ البئرُ هناءً

(7)

منذ سنوات كان عليان يشعر بسعادة بسبب نبوغ ابنه سعد وتفوقه العلمي، كان يأمل أن يحقق مركزًا مرموقًا ويجعل له قيمة في المجتمع، فبعد أن اجتاز الثانوية العامة بتقدير مرتفع سجّل في كلية الطب، ثم ما لبث أن ترك الدراسة بعد فترة من الزمن والتحق بكلية الشريعة وتركها أيضًا، غادر إلى أفغانستان وانقطعت أخباره لمدة سنتين، ثم عاد قبل غزو الكويت بثلاث سنوات، كان أكثر حِدَّةً وتطرفًا. ذات يوم سكن بالقرب من بيت عليان رجل عرف فيما بعد أنه

قريب لأحد أعضاء هيئة كبار العلماء، فطلب منه عليان أن يحدد موعدًا لزيارة قريبه، وكان أمله الأكبر أن يكون سعد معه ربما يغير بعض مواقفه، ولكن صدمه سعد بقوله أنه لا يرغب لقاء أولئك الناس فهم فقهاء السلاطين، كبر الخوف في داخله وبدا الأفق أسود كالحِجَا، دعا له كثيرًا بالهداية، ذرفت عيناه الدمع عند عمه دخيل الله وهو يحدثه عن تحول سعد من طالب مثالي يدرس في كلية الطب إلى رجل يتلقّى تعليمه من كلية الفناء.

* * *

في ذلك المساء الذي دعت له الجدة بعد حادثة قيادة النساء للسيارات، جاءت سوّير مع سائقها الخاص، حينها لم يحضر عاشق لبيت والده لارتباطه بموعد مع مجموعة من الخبراء قَدِموا من ألمانيا للمشاركة في مشروع خاص بالمختبرات الطبية، لم يقتنع دخيل الله بذلك وقال: ويش المشروع الذي يُقام في هذه الأيام؟ أكيد طلبت منه الجلوس عند بزارينها، خائفة عليهم من الكيماوي.

وحقيقة لم يكن هنالك لقاء مع خبراء ألمان، وأيضًا لم يبق عاشق مع أبنائه في البيت، فقد طلبت منه سوّير أن يلتقي بأحد الأشخاص الذين لهم علاقة بتقديم الخدمات والمؤن لقوات التحالف، فالفرصة مواتية لكسب عدة ملايين بتأمين بعض المستلزمات المعيشية لذلك العدد الكبير من المقاتلين المتجهين شرقًا، وشمالاً.

شعرت سوّير أنها كسبت معركتها، ليس مع حمدة فقط بل مع الجميع، فلن تجرؤ أي واحدة منهن أن تتحدث عنها مستقبلاً. ربما تنازلت قليلاً أو سامحت ولكن هذا بسبب إقناع الجدة فطيمة أو «يمّه» كما يناديها الجميع.

ثروة سوّير الكبيرة هي التي حققت هذا الكسب وذلك الصيت، الجميع يحسدها على تلك الثروة التي ورثت معظمها من والدها مبارك النسيجان، أحد أبرز تجار العود في زمن سابق وصاحب العديد من العقارات، وبالذات في مكة والمدينة التي طالتها التوسعة ليحصل على تعويض مالي كبير من الدولة. هذه الثروة توزّعت بعد موته بينها وبين أخويها اللذين حقّقا الكثير من الواجهة الاجتماعية وتبوأ أصغرهما منصبًا قياديًا بالدولة. تعرّفت على عاشق عندما مثل شاهدًا مع صديق له على بيع أرض لها، أعجبه جراتها وعرض خدماته عليها، كانت تكبره بعشرة أعوام وهو لا يزال فتى مملوءًا بالحيويّة والنشاط، وافقت ثم ما لبثت أن عرضت عليه الزواج، لم يتردد ولم يستشر أحدًا، وافق، كان ذلك في السنوات الأولى لحكم الملك خالد، لتبدأ طفرتهما.

لم يعترض دخيل الله مطلقًا على الزواج، بينما كانت سبيكة تقول لأمها لو طلب من أخواته البحث عن امرأة جميلة وثرية لوجدنا من هي بعمره وليس أكبر منه بعقد من الزمن، عاشت سوّير في البدء صراعًا مع أخويها، ثم ما لبثا أن غيّرا رأيهما بعاشق عندما رأيا مدى انصياعه لزوجته وحبّه لها، إضافةً إلى نفوذ شخصيتها وعدم وضع ثروتها بين يديه، هي من اختار أسماء أبنائها مازن ورحاب ثم طارق، حرصت كثيرًا على مملكتها، وكانت تشعر بالنشوة وهي تسمع ما يتناقله البعض عن تسمية دخيل الله لابنه، زوجها «عاشق سوّير»، وكانت ترد دائمًا: «وفيه عيب عندما يحب الرجل زوجته ويعشقها؟».

* * *

في ذلك المساء، وبعد خروج سعد من المجلس عند سماعه

صوت الدفوف وغناء النساء، كادت غمامة الوجوم والاكتئاب أن تغطي مجلس الرجال، لولا وجود الأخوين بكر وعيسى زوجي ابنتي دخيل الله حسناء ولولوة اللذين أحضرا أبناءهما معهما. كانت لديهما القدرة على التناوب في إطلاق الطرف والنكت، مما جعل مانع يستلقي على الأرض من الضحك، وتدمع عينا عليان وهو يكتم الضحكات. حينها علق دخيل الله عليهما قائلاً: «الظاهر إنني زوجت بناتي على مهايل». لم يشعر بالضيق منهما مطلقاً، بل كان يحرص دائماً على وجودهما في كل اجتماع للعائلة. بكر يعمل مراقباً صحياً في البلدية، وكان دائماً يحكي قصصه مع أصحاب المطاعم والمحلات، بينما يعمل عيسى في فرع للبنك التجاري في البطحاء، هما يرصدان الناس دائماً ويحولان الحدث المأساوي إلى حكاية يضحك منها الجميع، ويتقنان تقليد لهجات الناس، سواء من الدول العربية أم داخل المملكة. لم يكن ذلك المساء هو الوحيد الذي اجتمعت فيه العائلة، بل كانت فطيمة التي تسعد بأن الجميع ينادونها «يُمّه» تحرص على أن يجتمع بناتها وزوجات أبنائها وحفيداتها مساء كل خميس، وبالطبع كان الرجال يأتون معهن.

لقاء لرجل وامرأة
لقاء لرجال ونساء
لقاء قد يتم

(8)

احتفل أهالي الكويت بخروج جيش صدام حسين من أرض يرى
أنها فرع للأصل، وبتحرير الكويت بعد أيام كثيفة طالت مدينة الرياض،
وأحس أهلها ببشاعة الحرب، وألفت آذانهم أصوات صفارات الإنذار،
وفي الرياض وفي مبنى خُصص للأفراح في حي خنشليلة احتفلت
أسرة الضبادي بزواج دخيل بن مانع من سعاد الابنة الثانية لعليان.
كان دخيل الله الضبادي في أوج فرحته لاقتراح حفيده بحفידته،
لذا فقد قرر أن يكون سكنهما عنده، في بيت الصالحية.

قد يبدو الأمر عاديًا أن يسكن دخيل في بيت جده، ولكن من يعرف دخيل الله يرى أن جميع أبنائه لم يسكنوا عنده بعد زواجهم، بدءًا من مانع وانتهاءً بنوح، وقد بقي هو وزوجته فطيمة وحيدين بعد زواج لولوة الذي كان بعد حادثة جهيمان بثلاث سنوات، ثمان سنوات تقريبًا بقي مع زوجته وعاملة من سيلان تساعداه، حتى قرر أن يسكن معه دخيل وزوجته سعاد، وهذا ما أسعد الأسرتين: أسرة مانع وأسرة عليان؛ لعدة أسباب، أهمها: فشل دخيل في الدراسة مما جعله يدخل المعهد المهني ويعمل لدى أكثر من شركة ومؤسسة، حيث كان يعمل بها بعض الوقت ثم يتركها، وبعد مغادرة اليمينيين أرض المملكة وجد فرصة لممارسة التجارة الحرة، فقد تقبل محلاً لبيع زينة السيارات يطل على دوار الخرج بمساعدة أبيه وجده اللذين دعماه ببعض المال، كان الجميع يعلم أنه لا يقدر على شراء أو استئجار بيت في ذلك الوقت، ودخيل عندما وُلِدَ سَمَاءَ والده مانع على اسم جده دخيل الله، ثم في أشهره الأولى خفف الاسم بحذف لفظ الجلالة، وأحيانًا تصغير الاسم بتشديد الياء مع كسرهما وكسر الدال، حتى يوحى بأن فيه شيئًا من الدلع، وربما للتفريق بين الجد والحفيد عند العتاب أو العقاب. دخيل أخذ من جده سرعة غضبه، وأضاف عليها شيئًا من الرعونة في التعامل مع الآخرين، وهذه تسببت في عدم إكماله دراسته حيث عوقب مرات عديدة لتطاوله على بعض الطلبة والمدرسين. وانتهى الأمر بصدور قرار طرده من مدرسته وحرمانه من الدراسة لمدة سنة، عندما حطم زجاج سيارة أحد المدرسين. حتى عندما التحق بالمعهد المهني تحاشاه الجميع عندما عرفوا ما اقترف من مشكلات، الأمر الذي جعله يجتاز المعهد بنجاح متواضع.

ومن يعرف سعاد الابنة الثانية بعد منيرة لعمة دخيل سبيكة، وابنة عليان، يشعر بكثير من الحزن عليها، فهي تمتلك الكثير من الجمال وإن اكتنز جسدها قليلاً، ولكن هنالك بعض الثقل في حديثها وتفكيرها، عندما عرضها والدها على بعض الأطباء قالوا ليس بها أي عاهة عقلية ولكن ربما ورثت بطء التفكير وردة الفعل من إحدى قريباتها. هي تعرف كل شيء وتقوم بكل ما يُسند إليها من أعمال، عدا الأمور التي تحتاج إلى تفكير فتبتعد عنها، وبسبب ذلك لم تستطع إكمال دراستها، وبقيت في البيت تساعد والدتها. وقد أحببتها كثيراً جدتها لأمها فطيمة، وأشفقت عليها، وسعدت كثيراً عندما وافق دخيل على أن يتزوجها، وتكحلت عينا فطيمة بعد زمن وقبل انتقالها إلى الرفيق الأعلى بإنجاب سعاد ابنتين وولداً، إحدى الابنتين حملت عاهة أمها.

يبتعدون قليلاً

هُمْ يبتعدون

عَنْهُمْ يبتعدون

(9)

مع إلحاح دُخِيل ولمتابعة أخبار العالم، وافق دُخِيل الله على وضع جهاز تلفزيون صغير في مجلس الرجال. وقد حرص أن يكون داخل خزانة صغيرة حتى لا تقع أعين بعض ضيوفه عليه. ومع الزمن تسرب «كييل» صغير ليرتبط بجهاز استقبال وطبق في سطح المنزل، كان دُخِيل الله يستمتع بمشاهدة المصارعة الحرة، ويتابع الأخبار، وكان يستاء كثيراً حين لا يتم عرض المصارعة في وقتها المحدد، بل أحياناً تطل لعناته المذيع وهو يعتذر عن عدم عرض برنامج المصارعة لضيق

الوقت، وعندما يجتمع الرجال في بيته يحرص أن يكون التلفزيون مغلقًا، لكي تتاح الفرصة للحديث وسماع الأخبار، وما يحصل عليه مانع من جديد الشعر، إضافةً إلى قصص وطرائف بكر وعيسى. أحيانًا يتجاوز عدد الرجال العشرين، بالذات إذا اصطحب بعض الأبناء أو الأحفاد صديقًا لهم، وغالبًا يقتصر الحضور على مانع وعليان وراشد ودخيل، وقد اعتاد دخيل الله على ذلك، لذا قرر أن لا يسأل عن البقية، ربما أطلق تعليقًا ساخرًا، بالذات عندما يتغيب عاشق، حيث يقول: «أكيد لم تسمح له سوّير»، أما نوح فبعد أن عاد من أمريكا حاصلًا على شهادة الدكتوراه بدأ التدريس بالجامعة، ومن ثم استطاع أن يكون علاقات جيدة بكثير من الجهات ليصبح مستشارًا في أكثر من موقع، ووفقًا لذلك تعددت أسفاره واجتماعاته. وقد كان تعليق دخيل الله على غيابه: «الله يهدي الدكتور، متعب نفسه، كأنه مسئول عن هذا العالم». ربما الأمر المزعج كثيرًا لدخيل الله هو اكتفاء ابنه نوح بالبنت فقط، وعدم رغبته أن تنجب له زوجته مزيدًا من الأبناء. ذات يوم قال لزوجته فطيمة أثناء حديث بينهما عن وضع نوح: «أنا ودي أعرف ليش ما جابوا غير هذي البنت! أنا خائف إن أم عيون غمص خَصّته بعدما ولدت بنتها». ردت فطيمة مباشرة: «باسم الله على وليدي، الدنيا هي اللي خلته ما يبي الخلفة».

كان حلم فطيمة أن يتزوج مازن بن عاشق حفيدتها فطيمة بنت نوح، تحدثت ذات يوم مع ابنتها حسناء ولولوة، عن رغبته تلك، عندها قررت حسناء أن تتحدث مع سوّير وتعرض عليها أمر زواج مازن من فطيمة بصورة غير مباشرة، وأن تقوم ولولوة بالحديث مع ابنة أخيها لتعرف رأيها بمازن. كانت إجابة سوّير لحسناء محبطة فقد كان

طموح سوّير أن تقترب للطبقة الراقية من خلال ابنها وابنتها، وقد أوْشكت أن تختار زوجة لابنها مازن من أكبر العائلات في الرياض، اكتفت حسناء لكي لا تصدم والدتها بالقول أن أم مازن كانت تتمنى أن تكون فطيمة لمازن ولكنها تحدثت مع عائلة لم تذكر اسمها وطلبت يد ابنتهم لابنها، وهي كانت ستخبر الجميع بعد الموافقة، وصل الخبر بصورة مشوّهة نقلتها «سعاد» التي قالت ببراءة لعمها نوح: «ليش خالي عاشق ما يبي مازن يتزوج فطيمة؟» لم يُجب عن سؤالها وغادر بيت الصالحية غاضبًا.

في مساء ذلك اليوم كان أحمد شريف، الموظف بشركة خدمات أجنبية، يقوم بزيارة لنوح مع أخته فدوى زميلة سيتا في معهد اللغة، التي كانت حريصة على أن يتعرف على أسرة الدكتور نوح، ويقابل فطيمة ذلك المزج الغريب بين أمريكا والصين والسعودية، عندها قرر أن يتقدم لطلب يدها. تربية فطيمة في أمريكا وعلاقات والديها بالجنسيات المتعددة التي تسكن في الرياض جعل الأمر عاديًا، وقد رأت في أحمد ما تتمناه كل فتاة، فوضعه المادي جيد، وهو حاصل على درجة الماجستير في برمجة الحاسب الآلي، ويطمح في البقاء في المملكة بعد الحصول على الجنسية، والأهم من ذلك أنه متفهم وضع المرأة السعودية، وحريص أن تكمل فطيمة دراستها في كلية الطب. بعد أسبوع من سماعه الخبر وزيارة أحمد مع أخته وطلبهما يد فطيمة، أعلن الدكتور نوح موافقته وذهب إلى والديه ليخبرهما، واختار الوقت الذي يكونان فيه معًا. كان ذلك بعد صلاة الظهر، وكانت سعاد قد أحضرت رُطبًا وبدأت بصب القهوة لهما. دخل نوح، وبعد تقبيل رأسي والديه قال: «لديّ خبر سيّفرحكما».

تمنّت فطيمة أن يكون الخبر خطوبة حفيدها مازن لحفيدتها فطيمة، بدأ قلبها يخفق بشدة عندما سمعته يقول: «فطيمة انخطبت» بادرت سعاد: «مازن ولد خالي عاشق».

رد عليها نوح: «لم يُرد الله أن يكون مازن، العريس أخ لزميلة سيتا في المعهد».

سأل دخيل الله: «من جامعتها؟».

رد عليه نوح: «بل هو عربي يحمل الجنسية الكندية».

شعرت فطيمة بأن قلبها سيتوقف، الفتاة التي تحمل اسمها ستغادر أسرتهم إلى رجل لا تعرف من يكون، شعرت بأن ثقلًا بدأ يجتاح لسانها، فلم تدر كيف خرجت كلمة «الله الموفق» من فمها! بينما وضعت سعاد دلة القهوة وذهبت تبكي بعيدًا، أما دخيل الله فقال له: «أنت أخذت رأينا بزواج الأم لكي تأخذ رأينا بزواج البنت؟ عمومًا هذي بنتك وأنت أعرف بمصلحتها»، قبل رأسيهما وغادر البيت بعد أن نادى سعاد وأخبرها بأن لكل إنسان رزقه، وطلب منها أن تفرح لأن فطيمة تحبها ولن تغادر الرياض مطلقًا.

حكايةٌ بدأت بنهايةٍ
نهايةٌ شجّعت على بدءِ الحكايةِ
مَنْ يبدأ يحكي سينتهي ذات يومٍ

(10)

كان خبر خطبة أحمد شريف لفطيمة بذرة ألم ومرارة غُرست
في جسد (يمّه فطيمة)، إضافةً إلى عدد من القروح قَضَتْ مضجعها،
كانت تداريها بالضحك والغناء والرقص مع بناتها وحفيداتها، كانت
تبتهل إلى الله كل مساءً أن يكفيهم الشر، ونسيت كثيرًا نفسها، كانت
ترتاح لسعاد وتعرف قدرتها على التفكير، لذا فقد كانت تتحدث كثيرًا
عن معاناتها وشدتها وقسوتها، وتتحدث عن حزنها لأوضاع أبنائها
التعيسة، فمانع وإن كان أحسنهم من وجهة نظرها لم يقدر أن يوسع

تجارته، وعاشق وإن لم يكن عاقاً جعل زوجته مفضّلة على أمه في كثير من الأشياء، وكان أكثر ما يؤلمها شخصيته التي مُسِخَتْ، بحيث أصبح «زوج الست» كما يطلقون على شبيهه في المسلسلات المصرية، أما نوح فقد أَلَمها زواجه من الخارج واكتفاؤه بابنة واحدة، وزاد من الألم تزويج ابنته لرجل غريب، ثمة أمور كانت تتحدث عنها، مثل الخلافات بين زوجات الأبناء وزوجات الأحفاد، وممارسات البعض مثل الجدل بين خديجة وبنات عماتها وأعمامها، أو ممارسات راشد ودخيل وسعد، إضافةً إلى ذلك البرود الذي جعل بعض الأحفاد لا يحرص كثيرًا على الجلوس عندها أو الحديث معها، وبالذات مازن ومحمد بن مانع.

كانت «يَمّة فطيمة» ترتجل الكثير من القصائد أثناء بوحها لسعاد، ولكن لم تكن سعاد مهيأةً مطلقاً لحفظ بيت واحد.

ورغم كل الهموم كانت «يمه فطيمة» شامخة كبرجي التجارة العالمي في نيويورك. وفي ذلك المساء سقطت أمام أنظار أبنائها المجتمعين لمتابعة حدث سقوط البرجين الذي تابعه العالم أجمع، سقطت لتغلق الستار على سيرة امرأة طوّقت عائلة دخيل الله الضبادي بباقات الحب لأكثر من ستين سنة، وليختلّ توازن رجل كان يستند عليها دائماً حتى لا يقع.

لم تكن حادثة البرجين بمستوى فاجعة فقد «يَمّة» عند آل الضبادي، سعاد لم تستوعب الأمر تماماً، حتى عندما حملت بسيارة الإسعاف إلى المستشفى، وحتى عندما حدد الأبناء موعد الصلاة عليها في مسجد الراجحي ليواري جسدها بمقابر النسيم. لم تصدق أن عباءتها أُحضِرَت دونها بعد أن لف جثمانها بها، أخذت العباءة

من دخیل و قبلتها، وتوجَّهت إلى سجاداتها لتحتضن شرشف صلاتها، كانت تنادي، «يَمَّه وينك؟» بكى الجميع معها، احتضنتها أمها سبيكة، وهذا من روعها والدها وخالها مانع، بينما ذهب دخیل لإحضار طبيب ليعطيها حقنة مهدئة؛ خوفاً من أن تُصاب بالجنون.

أصاب الجميع الحزن، كان التلفزيون مغلقاً، لم يفكر أحد أن يفتحه لمتابعة ردود الفعل العالمية، صاحب الحزن الذي يشعر به نوح قلق على العلاقة مع أمريكا وطريقة تعاملها مع السعوديين حين نشرت صور وأسماء من شارك بغزوة منهن كما سمّاها سعد بن عليان، وكان غالبيتهم من السعوديين.

حمامة داخل قفص

وحمامة تطير

أحيانًا تطير الحمامة داخل القفص

(11)

حصار غريب لا يعيه دخیل الله مطلقًا، لقد ترك غرفة نومه داخل البيت بعد وفاة فطيمة وفضل أن يكون سريره في مجلس الرجال الكبير؛ لقربه من دورة المياه، وحيث لا يحتاج أن يمشی عندما یقرر أن یزوره أحد، حصار یجعله لا يتحدث كثيرًا، ولا یأكل كثيرًا، على الرغم من إلحاح ابنه مانع الذي كان یحرص على أن یكون موجودًا فترة الغداء والعشاء. ثمة بعض الأدوية التي بدأ یتجرعها مضطربًا، حصار النوم والاستيقاظ والأكل والشرب، حصار التنفُّس والرؤية

والسَّماع، حصار مشوب بغيبوبة تنتهي بالموت. أهى السنوات تمنحه هذا الحصار الذي يجعله لا يقدر مطلقاً أن يعبر عن مشاعره بصورة طبيعية؟ كان يرتاح كثيراً عندما يغادر الجميع البيت ويبقى مع سعاد، كان يسألها بصوته الواهى عن أطفالها، ودخيل ووالدها عليان.

تقدم فنجان القهوة له وهى تتحدث: «ييه، يمه فطيمة الله يرحمها كانت تقول لى لا تزعلين أحد، أنا ما أحب أن يغضب منى أحد، أعمامى كل واحد يأتى مع امرأته ويسلم عليك ويجلس خمس دقائق ثم يذهب، الخمس دقائق هذه لا تكفى لإعداد القهوة والشاي، أنا أخاف إنهم يزعلون ويقولون، جينا نسلم على «ييه» وما قهوتنا سعاد، دخيل يقول لا يهملك منهم، هؤلاء إذا لا قدر الله مات «ييه» ما تشوفين وجه أحد منهم، صحيح ييه؟».

يستمع إلى كلامها ويهز رأسه بصورة لا توضح مطلقاً بلا أو نعم، وبصوته الواهى يقول: «لا يهمنىك». كان ينظر إلى تأثير السنوات العشر التى مرت على سعاد بعد زواجها من دخيل، ترهّل جسدها وكبرت كثيراً، كان يرى فيها شيئاً من ملامح جدتها فطيمة وكثيراً من طبيعتها، يعرف أن الجميع ينظر إليها كامرأة قدراتها الذهنية محدودة، لذا فمن النادر أن يجلس عندها أحد أو يشاركها الحديث، باستثناء أمها وبعض أخواتها، وقد كانت حمدة تدعوها أحياناً لزيارتها، وغالباً هذه الزيارة تستفيد منها بتكليف سعاد بعمل بعض «السلطات» التى كانت تتقنها فتبقى داخل المطبخ مع العاملات فى بيت أخيها راشد، وتكون حمدة مع ضيوفها وغالبيتهم زميلات لها فى المدرسة.

كانت تحاول جاهدة أن لا يتعرّفن عليها، ذات يوم رأتها إحداهن وقد كانت ترغب الجلوس معهن لتناول الطعام سألت حمدة عن

تلك المرأة، أجابت بعد أن أمسكت بيد سعاد وذهبت بها إلى إحدى الغرف البعيدة، أن تلك المرأة من النساء اللاتي تعطف عليهن وتأتي بها لمساعدتها لقاء مبلغ مالي بسيط.

لم تع سعاد الأمر مطلقاً، كان همها «ألا يزعل منها أحد»، دخیل كان يتوقع أن خالته حمدة تحن على زوجته، لا سيما وهي شقيقة زوجها راشد، وأن ذلك الاهتمام سيسعد زوجها.

اكتشفت سویر من خلال حديث مع إحدى النساء اللاتي قمن بزيارة حمدة وهي صديقة لها أيضاً استغلال حمدة لأخت زوجها سعاد، وقد وجدتها فرصة للثأر منها لا سيما أن العلاقة متوترة بينهما منذ سنوات طويلة، فأشاعت بين الجميع ما حدثتها به تلك المرأة، مما أغضب دخیل ليسأل امرأته عما تعمله في بيت خالته، وليتأكد فيما بعد أن الجميع يتعامل مع زوجته بصورة دونية، وهذا شجّع حمدة على استغلال بساطتها لخدمتها. حينها قرر الذهاب إلى خالته والاقتصاص منها، قالت حمدة: «احمد ربك أن فيه أحد يتذكر زوجتك ويكلمها، ادع لها بالعافية».

لم يتمالك دخیل أعصابه فهجم على خالته ليضربها بكل ما أوتي من قوة، ولولا تدخّل راشد لأنهى عليها، كان الدم ينهمر غزيراً من أنفها بينما كانت تصيح: «ما الذي أوقعنا مع عائلة المجانين؟».

تحولت المشادة بين دخیل وراشد وتصاعدت لتنتقل إلى مركز الشرطة ليوّقع دخیل تعهّداً بعدم التعرّض لعائلة راشد بن عليان. هذا الخلاف جعل زيارات راشد مع زوجته لجده دخیل الله نادرة جداً وتحدث حينما لا يوجد دخیل مع زوجته في البيت.

تلك الحادثة أثّرت كثيراً على دخیل؛ فقد شعر بالدونية من

الجميع وأحسَّ أنه عالية على جده، لا دخل له سوى ذلك المبلغ البسيط الذي يحصل عليه من بيع مستلزمات السيارات في محله الواقع على دوار الخرج. وزوجته وإن كانت طلباتها محدودة لكنها لا تعمل لتساعده في تحسين مستوى الدخل. ورعونه جعلته يفقد كثيرًا من الصداقات، ولم يجد متفئسًا نفسيًا سوى بناء حظيرة على سطح المنزل، ووضع داخلها مجموعة من الصناديق الخشبية التي تصلح كأعشاش حمام.

لقد وجد أنه يستطيع أن يبني ألفة خاصةً بينه وبين الحمام، وقد أشار عليه أحد باعة الحمام بالبده بالأنواع الرخيصة لاكتساب الخبرة في تربية الحمام، ومن هذه الأنواع الحمام البلدي (البغدادي) والهندي والكويتي، لم تمضِ فترة طويلة حتى اكتسب دخيل الكثير من المعلومات عن الحمام، من ذلك أن الحمام يحتاج إلى عناية من ناحية الطعام، فهو يحتاج إلى تنوع في الغذاء، وقد عرف أن من أغذية الحمام المعروفة القمح والذرة البيضاء والدخن، وكذلك العدس، وقد وجد في الأسواق مخلوط الحبوب وهو المفضل لتغذية الحمام بدلاً من شراء كل صنف على حدة. أما للشرب فيفضل وضع الماء في الأنية الخاصة التي تباع لدى محلات الطيور، وقد نصحه أحد باعة الحمام إلى أنه بالإمكان تعويد الحمام على أكل أشياء أخرى مثل الأرز المطبوخ أو الخبز الناشف المطحون على شكل حبيبات، ومن المعلومات المهمة أيضًا التي اكتسبها دخيل إن الحمام يبيض بيضتين في الغالب وتكون مدة الحضانة من ستة عشر إلى تسعة عشر يومًا، بعد ذلك يفقس البيض عن فراخ صغيرة مغطاة بزغب أصفر وتحتاج تلك الفراخ عادة من خمسة إلى ستة أسابيع لكي تنمو وتصبح قادرة على الطيران، ويعتمد

ذلك على نوعية الغذاء ومدى رعاية الأبوين؛ حيث إن بعض أزواج الحمام لا تهتم بصغارها كثيرًا. وبعد فترة قصيرة استطاع دخيل التمييز بين الذكر والأنثى عن طريق «الشوكات» وهي عظمتان توجدان تحت فتحة الشرج، حيث تكون متلاصقة أو متقاربة عند الذكر ومتباعدة عند الأنثى، وقد ازدادت خبرته مع الزمن حيث استطاع التفريق عن طريق الشكل الخارجي، حيث رأى أن حجم الذكر أكبر من الأنثى، وهو ذو جسم أقوى، كما أن رقة الذكر أكثر لمعانًا من الأنثى.

لقد اعتادت سعاد على عالم دخيل الجديد، لا سيما وأنه هيأً لنفسه مكانًا بالقرب من الحظيرة، حيث جلب مجموعة من المقاعد الخشبية وجعلها شبه متقابلة ليكون ذلك «مركزه» الخاص، وهذا ساعده على أن يشتري أرجيلة صغيرة. من جانب آخر استطاع أن يتعرف على بعض هواة تربية الحمام ليزوروه في مركزه الخاص فيما بعد، ولكن بقي الحمام هو الصديق الخاص جدًا لدخيل، حتى إنه بدأ يتحدث عن أزواج الحمام التي يشتريها أو يبيعها لجده دخيل الله الذي ينظر إليه دون تعليق، وقد شعر كلٌّ من والده مانع وعمه عليان بتحسُّن حالته النفسية وهدوئه بعد أن دخل عالم الحمام، إضافةً إلى الخبرة التي اكتسبها بصورة سريعة جعلت حالته المادية تتحسن، وهذا دفعه لأن يشتري «عقدًا ذهبيًا» لزوجته سعاد، التي فرحت به كثيرًا وأرته جدها دخيل الله ووالدتها سبيكة وأخواتها، وبسبب ذلك بدأت بمساعدته في تنظيف حظيرة الحمام، والاعتناء بها، وزاد اهتمامها بإعداد القهوة والشاي لضيوفه من هواة تربية الحمام في الوقت الذي زادت فيه الجفوة بينه وبين بعض أقربائه بسبب حادثة حمدة، التي استغلتها مع زوجها راشد في تشويه صورته.

حمامة تبني عشًا
يدّ تهدم بيتًا
عش الحمامة بيت فراخ صغيرة

(12)

اتفقت كل من سبيكة وحسنا ولولو بتوزيع أيام الأسبوع بينهن باستثناء يوم الخميس للعناية بالدهن دخیل الله ومعرفة ما يريد، إضافةً إلى مساعدة سعاد في تنظيف سريره وتغيير الأغطية وتبخير الغرفة، وقد استُثني يوم الخميس، لأنه اليوم الذي تجتمع فيه العائلة غالبًا. كنّ يأتين بعد صلاة العشاء، وهو الوقت الذي غالبًا لا يوجد فيه ضيوف أو زوار، كانت سعاد تفرح بقدومهن وتُعِدُّ الشاي والقهوة، حتى إنهن اعتدن على شاي سعاد وقهوتها التي كانت تضيف إليها

قليلاً من الهيل والزعفران.

اعتاد دخيل الله على تناوبهن بالزيارة والاعتناء به، وفي الوقت ذاته سماع أخبار العائلة من خلالهن، على الرغم من أنه كان يشجع سعاد على معرفة الأخبار ومتابعتها والتأكد منها لثقتة بأنها تقول الحقيقة ولا تكذب أو تخفي عنه شيئاً مطلقاً، الأمر الذي جعل سعاد تشعر بمسئولية كبيرة، فبدأت تخاف أن يقول لها: «يَّه دخيل الله، ليش ما قلت لي، أو لماذا لم أعرف ما حدث؟».

من تلك الأخبار: دخول سعد بن عليان السجن، حيث ذكرت أمه سبيكة لوالدها دخيل الله ذات مساء وهي تقوم بترتيب سريره، بأن سعد سافر إلى المدينة المنورة، وسيغيب فترة، وإن شاء الله يأتي بالسلامة، وبعد مغادرتها مباشرة سأل دخيل الله سعاد عن أخيها سعد، وهل ما قالته أمها صحيح، حيث أجابت مباشرة: لا يا «يَّه» أنا سمعت أن سعد دخل السجن يوم جاء من أفغانستان.

كان دخيل الله يعلم أن بناته وأبنائه وأحفاده لا يرغبون مطلقاً في تكبير شيخوخته بالأخبار المزعجة، ولكنه في الوقت ذاته يرغب في معرفة الحقيقة، وكم تمنى كثيراً أن تكون الحقيقة غير ما قالته سعاد، ولكن الأيام أثبتت صدق قولها، لا سيما وأن سعاد بدأت تسأل دخيل وأخواتها عن أي خبر تسمعه حتى تنقله إلى جدها الذي يستمع إليها بعيداً عن الآخرين عندما تقدم له القهوة والتمر بعد صلاة الظهر. محمد بن مانع الابن الثاني لمانع والأخ غير الشقيق لدخيل، والدته خضرة عبد الموجود تنتمي لإحدى الأسر المصرية الفقيرة، تزوجها مانع بعد أن أزيل رحم زوجته أمينة بعد الاشتباه بوجود ورم، وقد أنجبت له إضافةً إلى محمد وعبد الله ثلاث بنات.

كانت خضرة في البداية غير مرغوب بها من قِبَل معظم أفراد عائلة الضبادي، ولكنها استطاعت مع الزمن التكيّف معهم، كان أبنائها يسمون أولاد المصرية، الأمر الذي جعلها تحرص على أن يكون جميع أبنائها متفوقين دراسياً، وبالذات محمد ولد المصرية الكبير، فلم تمض سنوات حتى اجتاز الثانوية العامة بتقدير مرتفع، الأمر الذي دفعه لأن يلتحق بكلية الهندسة، كانت تمنى أن يلتحق بكلية الطب حتى يُقال لها «أم الدكتور» ولكنها في الأخير قالت: «وماله أم المهندس؟ برضه حلو». استطاع أن يتخصص بهندسة البترول ليلتحق فيما بعد بأحد حقول النفط في شرق المملكة، مما جعله يقطن بعيداً عن عائلته وبالذات أمه التي كانت تحلم أن يتزوج ويسكن قريباً منها في الرياض. بعد فترة بسيطة من عمله فوجئت بخبر نَقْلَهُ لها زوجها مانع وهو يكاد يبكي، كان يقول:

«ولدنا، الله يخلف، راح».

لم تدرِ هل تبكي أم تصرخ أم تذهب إليه! هو لم يمت، ولكن ابتعد كثيراً عن العائلة.

أضاف مانع قائلاً: «لقد تزوج أخت صديق له من أهل القطيف». تهاوت أحلامها بعودته إلى الرياض، حرص مانع أن لا يصل الخبر إلى والده المقعد مجرداً، وعندما سأله والده بصوته الواهي عن صحة زواج محمد قال له: «إيه، تزوج بنت أحد حمايل المنطقة الشرقية. الخبر وصل إلى الجد دخیل الله مباشرة من سعاد التي قالت له أن محمد أخا زوجها دخیل تزوج شيعية».

محمد لم يأبه بغضب الجميع، لقد اقتنع بالفتاة وعائلتها، وهي أولاً وأخيراً مسلمة، كان أشد الغاضبين عليه بسبب زواجه أخته

خديجة، حيث بدأت ترسل له عبر البريد الإلكتروني العديد من الفتاوى والتقارير عن الشيعة، أو كما يسمونهم الرافضة، وكان يقوم بحذفها مباشرة بمجرد فتحها، وأحياناً قبل ذلك عندما يلاحظ أن الرسالة منها، في الوقت الذي بدأ يرسل رسائل تحث على عدم التطرف واحترام الرأي الآخر. عمله وزواجه ساعدا كثيراً على أن تكون علاقته بعائلته فقط في المناسبات.

المرارة التي ذاقتها أم محمد المصرية خضرة، والخوف من أن يضع ابنها الثاني عبد الله ويختار امرأة قد لا ترضى بها جعلها تطلب من مانع أن يزور أخاه عاشق ليطلب يد ابنته رحاب لولدهم عبد الله. عبد الله اختار منطقة الوسط بين أخويه دخیل ومحمد، حيث لم يترك الدراسة قبل المرحلة الثانوية كأخيه دخیل، ولم يكمل دراسته الجامعية كأخيه محمد، حيث اكتفى بدبلوم إلكترونيات من كلية التقنية، وساعده أحمد شريف زوج فطيمة ابنة عمه الدكتور نوح على العمل في الشركة التي يديرها، وهذا على رأي والدته بداية الاستقرار الذي لن يكتمل إلا بزواجه من رحاب ابنة عمه عاشق الذي لا يمتلك مطلقاً الرأي في مصير أبنائه.

كان الرأي الأول والأخير لأمها سویر النسيجان التي أعلنتها صريحة بأنها لن تزوج ابنتها لأحد من عائلة الضبادي أو أنسابهم. وبذلك أغلقت الطريق أمام الجميع حتى تنقئ أسرتها من شوائب لحقت بهم بسبب زواجها من عاشق، وفق رأيها ونصيحة أخويها. هذا الخبر أوصلته سعاد ذات ظهيرة لجدها دخیل الله، حيث قالت له: «مانع طلب يد رحاب وسویر قالت ما نبي نزوج بنتنا لأحد من العائلة».

ابتسم دخيل الله عند سماعه الخبر وانتظر الصيغة الثانية له من مانع وعاشق عندما يسألهما عن عبد الله ورحاب، وهذا ما حدث عندما قال مانع: «عبد الله لا يريد أن يتزوج من الأقارب». وأما عاشق فقال: «رحاب مشغولة بدراستها ولم تفكر بالزواج، وسوّر تتمنى لو أن ابنتها تتزوج من العائلة».

بعيدًا طارت الحمامةُ
لتبحثَ عن عش
لتبحثَ عن حياةٍ
أو فناءٍ

(13)

حادثة رفض سوّير النسيجان أن تتزوج ابنتها رحاب بنت عاشق من عبد الله بن مانع تسببت بشبه قطيعة بين الأخوين، الأمر الذي جعل مانع يردد مقولة والده الشهيرة عن أخيه بأن اسمه «عاشق سوّير»، مما جعل سوّير تبحث عن مسمى لمانع، لتطلق عليه «الدلال»، وفقًا لعمله بسوق الزل والبشوت، وقد كانت تتمنى لو أسمته «الطبال» لأنه تزوج مصرية «فهى راقصة وهو طبال»، ولكن رأت أنه من الأفضل

عدم إطلاق المسمى؛ فزوجته خضرة بعيدة كل البعد عن الرقص ومانع لا يتقن مطلقًا الإمساك بالطليل.

كانت حمدة تراقب من بعيد ذلك الخلاف، وتنتظر الوقت المناسب للتدخل، بالطبع كانت مملوءة حقًا وحسدًا على سوير لذا فقد بدأت تحكي لأختها أمينة وضرتها المصرية خضرة قصصًا اختلقتها عن سوير، منها أن هنالك أناسًا شاهدوها مع ابنتها بالمايوه على شاطئ برايتون في بريطانيا الصيف الماضي، وقد كررت هذا الخبر عندما حضرت خديجة ابنة مانع من أمينة، التي قالت لخالتها حمدة: أتمنى أن تتأكدي من هذا الخبر لأن فيه خروجًا عن الملة، وقد ردت عليها حمدة بأن من شاهدهما ثقة، وأضافت أن زوجها عاشق كان يراقب زوجته وابنته وهما شبه عراة وهو يحتسي الخمر، عندها علقت خديجة قائلة: «عمي عاشق يشرب الخمر أم الخبائث! لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم!».

مما جعل خضرة تقول وهي في حالة ذهول: «ربنا أكرمنا برفضهم، وإلا يا عيني على ولدي عبد الله، هيبقى زوج الست وهيطلع له قرون».

اقتربت حمدة على خضرة أن تطلب عبير ابنة منيرة بنت عليان، ونفذ الاقتراح مباشرة عندما ذهب مانع إلى محسن الصخري «أبو صخر» وشريك راشد في العقار الذي يسمونه «أبو صخر» رغم أن ابنه حول اسمه من صخر إلى عبد العزيز.

كان حفل زواج عبد الله بن مانع كبيرًا حضره الجميع عدا عاشق وعائلته، سعاد أخبرت جدها بكل تفاصيل الزواج وبالذات غياب عمها عاشق وعائلته الذين غادروا إلى المنطقة الشرقية خوفًا

من تدخّل عليان أو نوح ومحاولتهما الإصلاح، على الرغم من أن مانع لم يرسل بطاقات دعوة لأسرة عاشق.

محمد بن مانع وجدها فرصة لأن يحضر الزواج مع زوجته القطيفية، وقبل الحفل زار جده دخيل الله مصطحبًا زوجته التي كانت متخوفةً من ردة فعل الجد، ولكنها ارتاحت عندما قابلت سعاد التي قالت لها بعد أن رحبت بها كثيرًا: «ييه ما زعل من زواجكم ودعا لكم بالتوفيق».

وعندما قابل أخاه دخيل في مركزه المعهود بالقرب من حظيرة الحمام قال له: «انتبه لزوجتك سعاد، تراها نقية، لا تتلوث». لم يفهم دخيل بالضبط ما قاله أخوه، وطمان نفسه بأن أخاه يعني أن زوجته ليس بها شر، ولا تحب المشاكل.

لم يشعر الدكتور نوح بالفرح كثيرًا وهو يحضر حفل زواج عبد الله ابن أخيه مانع من عبير حفيده أخته سبيكة، ليس بسبب غياب عاشق وأسرته، بل بسبب التقرير الطبي الذي تلقاه ذلك اليوم بوجود ورم سرطاني في جسد زوجته، كان يفكر كيف سيبلغها ويبلغ ابنته فطيمة بالخبر، لا سيما أن الورم منتشر بصورة تحتاج إلى قرار سريع لنقلها إلى أحد مستشفيات هيوستن بالولايات المتحدة الأمريكية. ساعد على سرعة إنجاز الإجراءات جنسيتها الأمريكية الأصل.

طلبت «سيتا» توديع والد زوجها دخيل الله، كان لديها إحساس بأنها لن تراه مرة أخرى أخبر الدكتور نوح والده أنه سيذهب مع زوجته لزيارة أهلها في أمريكا وسيعودون بعد مدة، سعاد أخبرت جدها بأن زوجة خالها نوح مصابة «بالمرض الشين» وقد ذهبت إلى أمريكا للعلاج.

هل ناحت الحمامة

هل بكت

هل صوتها سجن؟

أم صوتها سجن؟

(14)

لم يتوقع دخيل الله أن تكون هذه الأخبار التي بدأ يتلقاها بصفة شبه يومية من سعاد تتسبب له بشيء من الاكتئاب، كان يتمنى أن يسمع ما يسره وينفس عن وحدته وكرهته، ولكن ماذا يفعل! سعاد تخبره بآخر أخبار الخلاف الشديد بين ابنه الكبير مانع ومعه زوجته وحفيده راشد وزوجته حمدة من جانب، وابنه عاشق وزوجته سوير من جانب آخر، وتخبره أيضًا بخلاف زوجها دخيل مع ابن عمته وأخيها

في الوقت ذاته راشد، وتخبره عن غضب عدد من أبناء وبنات أسرة الضبادي، وعلى رأسهم أخوها سعد وخديجة أخت زوجها على محمد الذي تزوج شيعية، وعندما تنتهي أخبار آل الضبادي تكون قد تابعت بعض نشرات الأخبار التي تبثها بعض القنوات الفضائية العربية وتخبره مباشرة بما يحدث في الوطن العربي، من حصار ثم غزو للعراق ومن إبادة للشعب الفلسطيني، ومنها استشهاد محمد الدرة، الأخبار كثيرة، والوطن العربي سلة مملوءة بالكآبة. أمور كثيرة تغيرت بعد موت زوجته فطيمة التي لفظت أنفاسها الأخيرة في الوقت الذي تهاوى فيه برجا التجارة في نيويورك، أيام طويلة مرت لم يسمع فيه صوت الطبل داخل البيت، ربما كسر هديل حمام دخیل ذلك الصمت الرهيب، ولكن من المؤكد أن ملايين الحمام لن تبث السلام سواء في العالم أو في أسرة الضبادي.

دخیل الله أدمن سماع الأخبار التي تبثها سعاد، بينما لاحظ كل من مانع وعليان ميله في الفترة الأخيرة للصمت، إضافةً إلى سرعة غضبه بصورة لم تكن معهودةً من قبل، ورغبته البقاء وحيداً أو بصُحبة سعاد فقط، هما يريدان أن لا يسمع ما يعكر صفوه في آخر عمره، طلب مانع من سعاد أن لا تخبر جدها عما تسمعه من أخبار سيئة، ولكنها أعطت «يَّه» عهداً بأن تقول له كل شيء، وتفكيرها المحدود لا يمكنها من فرز ما هو سيئ مما هو جيد، هذه الحياة تراها بعين الحقيقة المجردة، لم تعرف مطلقاً أن أغلب الناس ينظرون إلى الحياة بمناظير متعددة، وأحياناً يرون ما يعكسه داخلهم في هذه الحياة، ثمة بياض شاسع في داخل سعاد، بينما تتفاوت كل الألوان في داخل من يحيط بها، حتى والدها عليان ووالد زوجها وخالها في الوقت ذاته

مانع. وها هي تبث ذلك البياض وشاحًا على جسد جدها، أو كما تسميه ويسميه الجميع «يَّه»، ولا تعلم أن ذلك البياض سيتحول إلى قطع داكنة كسواد الليل في أعماق دخيل الله، مما يتسبب في اكتابه وتوتره، الأمر الذي لا يغيب مطلقًا عن مانع وعليان، ذلك السواد أدى فيما بعد إلى دخوله في مرحلة شبه الغيوبة أو البين بين، بعد جلطة بسيطة ألَّمت به، حينها بدأت فكرة تغيير البيت والانتقال إلى بيت أحد الأبناء، أو البحث له عن ممرض أو زوجة، لكن وبكل تأكيد الأمر المهم هو قرب انتهاء زمن بيت الصالحية، وهذا إنذار لدخيل بالبحث عن سكن بديل ينتقل إليه مع زوجته سعاد وأبنائه، لا سيما وأن حالته المادية تحسنت قليلًا بدعم أسراب الحمام التي تتكاثر في الحظيرة التي أقام بجانبها مركزًا يبتعد به عن صخب أسرة الضبادي.

كم هو واهٍ هذا العشُّ!
عشٌّ قد لا يصلح للعيشِ
عشٌّ قد لا يعيشُ

(15)

شعر دخيل أنه المتضرر الوحيد مع أسرته الصغيرة إذا تم الانتقال من البيت ببيعه أو تأجيريه، فهو يسكن مع زوجته وأطفاله الثلاثة مع جدهم دخيل الله، وقد اعتاد كثيرًا على البيت، وثمة ذكريات كثيرة وجميلة في هذا البيت أكثرها مع «يمّة فطيمة»، إضافةً إلى أنه لا يستطيع الاستغناء عن حظيرة الحمام والمركاز، وأغلب أصدقائه الجدد يعرفون هذا البيت، وقبل كل ذلك وبعده يعرف نفسه بأنه غير قادر على شراء بيت.

المشكلة الأخرى هي وجود امرأة غير سعاد في هذا البيت، وإن كانت زوجة لجده، بكل تأكيد سيؤثر هذا على حياته وحرية، فمن المحتمل أنها ستطالب بإزالة حظيرة الحمام، وسيفقد مجلسه الخاص، وأهم من ذلك لن تكون له حرية استقبال الزبائن أو الأصدقاء.

حاول أن يرفض، ولكن كان صوته واهياً أمام آراء بعض الرجال في الأسرة، وبالذات والده مانع وعمه عليان، وأصابه الرعب عندما رأى ما ألمَّ بجده، لذا لم يفارقه منذ سقوطه أمام الجميع وحمله بسيارة الإسعاف، حتى عودته إلى المنزل محمولاً ليوضع على سرير طبي أحضره عمه عاشق مع ممرض شرق آسيوي، ليقوم برعايته وإعطائه الطعام والشراب كطفل في سنته الأولى، وعندما شعر دخيل أن هنالك بقية من عمر لجده لم تنقض بعد بدأ تدريجياً العودة إلى حياته التي اعتاد عليها قبل الاجتماع.

كلمات قليلة افتقدتها سعاد بعد عودة جدها محمولاً من المستشفى، تلك الكلمات كانت تبث فيها طاقة خاصة تشعرها بالحياة، حتى «الحمد لله» لم يقدر أن ينطق بها دخيل الله عندما جلست سعاد بقربه لتسأله «ويش لونك اليوم؟»، فاجأتها تلك النظرة من عيني جدها، قالت: خفت عليك، ما أبيضك تموت يبه، من يستمع إليّ بعدك؟

أغمض عينيهِ قليلاً ثم فتحهما، لم يكن في مجلس الرجال الكبير سواهما، بدأت تتحدث عن ذلك اللقاء، وكيف أن الجميع توقعوا موته، حدّثته عن شجار حدث بين بعض بنات أبنائه بسبب لبس البنطال، والجدل حول حرمة، حدّثته عن أخيها سعد الذي خرج من السجن قبل اللقاء بأسبوع بعد أن وقّع تعهداً، حدّثته عن سويّر التي طلبت من عاشق أن يعارض كل قرار أو رأي يقدمه مانع، حدّثته عن

اتساع نفوذ حمدة على نساء العائلة، كان لديها الكثير من الكلام تحدّث
به عيني جدها دخيل الله المحتقتين بالدمع، أرادت أن تتحدّث عما
سمعتة من أخبار لولا دخول الممرض الشرق آسيوي جالبًا معه فوطًا
صحيّةً لتعذّر قيام دخيل الله لدورة المياه.

زغَبَ أم ريشُ؟
جناحَ أم قدمٌ؟
لتركضَ، لتطيرَ
لتنبتَ كل المساميرِ

(16)

للحمام فضل كبير على دخيل في التعرّف على عدد من الناس ممن يمتلك تجربة حياتية خاصة، ربما يكون «أبو عطا» من أهم أولئك الناس، العلاقة بين دخيل بن مانع وأبو عطا تجاوزت حدود بيع وشراء الحمام إلى صداقة خاصة جعلت دخيل يبوح لأبي عطا بهمومه الخاصة التي من أهمها حالة جده الصحية، وسكنه في بيت في أي لحظة قد يطلب منه مغادرته، وبالذات بعد وفاة جده، فهو

مجرد ساكن مؤقت، ولا أحد سيرأف بحاله مع زوجته وأبنائه، إضافةً إلى أن المشكلات المتفاقمة في الأسرة ستعجل بتوزيع إرث جده بعد وفاته، ومن ضمنه بكل تأكيد بيت الصالحية.

- هل هنالك من هو محتاج في أسرتك؟ سأله أبو عطا.

- أنا أكثرهم احتياجًا.

- لماذا لا يتنازل جدك لك عن البيت؟

- هو لا يشعر الآن فكيف يتنازل.

- الأمر بسيط ولكن يحتاج إلى مغامرة.

- أنا مستعد لهذه المغامرة، ولكن كيف؟

الإجابة عن سؤال دخيل لم تكن مطلقًا بتلك السهولة، وأبو عطا لديه خطة لتنفيذ مغامرة قد تغير حياة دخيل، أسرة الضبادي لا يعينها مطلقًا دخيل ولا زوجته ولا أبنائه، كل فرد من الأسرة يريد أن يلغي ذلك الرابط بينهم والذي يتمحور بيت الصالحية، حتى والده رضىخ لسلطة الزوجتين، وزوج عمته عليان الذي أصبح خالاً له أو عمًا وفق أعراف المجتمع بعد زواجه من ابنته سعاد، قد يكون منحازًا لابنه راشد، ودخيل على خلاف كبير معه، لذا لا يعنيه مطلقًا بقاؤه أو مغادرته بيت الصالحية، وها هو «أبو عطا» يرمي له طوق النجاة من التشرّد. هي مغامرة كما قال وتنفيذها يحتاج إلى الحصول على ختم المحل الذي كان جده دخيل الله ثم والده مانع يستخدمه لإجراءات المحل النظامية، إضافةً إلى إتقان توقيع دخيل الله ووضع بصمته أسفل ورقة التنازل.

خبرة «أبو عطا» ساعدت دخيل كثيرًا، الذي أوضح له أنه سيقوم بتزوير ورقة تُفيد بتنازل الجد دخيل الله لحفيده عن بيت الصالحية،

وتاريخ التنازل مهم جداً، لا سيما وأن مانع كان ملازمًا لوالده منذ سنوات طويلة، ويعرف كل قرار يتخذه والده، لم يكن القرار هيناً لدى دخيل، لا بُد أن يجعل حياته شريطاً يمر أمام عينيه، هو يعرف أنه من النادر أن يغادر والده مانع الرياض، وفي السنوات الأخيرة لم يكن الجد دخيل الله يذهب إلى محل الزل إلا نادراً، وذلك عندما يشعر بالاكْتئاب أو يفكر أن يلتقي بأحد وهو لا يرغب أن يقابله في بيته، حالة الاسترجاع والتذكُّر لم تَطُل لأن دخيل لم يرتبط بمحل الزل بصورة يومية إلا في الفترة التي غادر فيها والده مانع مع عمه عليان مع عائلتهما إلى الحج، كان ذلك بعد زواجه بعام، كان الجد حريص على أن يذهب بصورة يومية للمحل، فربما هنالك من يرغب شراء بشت أو قطعة زل أو سجاد فاخر، أغلق دخيل دكان زينة السيارات في دوار الخرج، وتفرغ لبيع وشراء البشوت والزل مع جده.

والده طلب منه تسجيل ما يبيعه على ورق خاص بالمحل، أعطاه مجموعة من الأوراق، تذكر أنه لا يزال يحتفظ ببعضها، تذكر تماماً التاريخ واختار يوماً أغلقت فيه جميع المؤسسات الحكومية، أحضر ورقة من تلك الأوراق كُتِبَ عليها في الجانب الأيسر دخيل الله الضبادي وأولاده، سوق الزل.

أعطاهما لصديقه «أبو عطا» الذي كتب عليها التالي:

بسم الله الرحمن الرحيم

أقرُّ أنا دخيل الله الضبادي، الموقع أدناه، وأنا بكامل قواي العقلية، أنني قد تنازلت عن بيتي الكائن بحي الصالحية لحفيدي / دخيل بن مانع بن دخيل الله الضبادي، وحفيدتي / سعاد بنت عليان

بن رزق الله الضبادي. وبذلك يكون البيت لهما ملكًا حلالاً، وليس لهما حق التصرف في بيعه أو هدمه وبناء منزل جديد مكانه إلا بعد وفاتي ووفاة زوجتي فطيمة أو موافقتها على ما يقرره بعد وفاتي، وبذلك لا يحق لأحد من أبنائي أو بناتي المطالبة بحقه في هذا البيت. والله خير شاهد.

وقد سجّل اسمي شاهدين ممن كانوا يترددون على محل الزل آنذاك، وعلاقتهما بجده دخيل الله جيدة، وقد حرص أن يكون الشاهدان ممن انتقلوا إلى رحمة الله، بحيث لا يبحث أحد عنهما ليتأكد من التنازل. وقد اتقن توقيع دخيل الله ووضعه أسفل اسمه، وطلب من دخيل الحصول على ختم المحل، إضافةً إلى بصمة جده، مع وعد بأن يكون الأمر سرّاً بينهما.

كان الرعب يسكن أعماق دخيل خوفاً من أن ينكشف أمره، إضافةً إلى أن الحصول على الختم والبصمة ليس بالأمر الهين، بقيت الورقة فترة من الزمن لديه حتى جاءت فرصة مرض فيها والده مانع، مما جعله يبقى بالبيت، ليذهب دخيل إلى المحل ويختم على الورقة بعدما طلب من العامل البنغالي إحضار كأس شاي من محل مرطبات يقع في الشارع المقابل للسوق، ومن حظ دخيل أن العامل أبقى المفاتيح على أدراج صغيرة يحفظ بها فواتير المحل، مما جعله يحصل على الختم ويختم أسفل الورقة ويعيده إلى مكانه.

في المساء وأثناء زيارة دخيل لوالده للاطمئنان عليه باغته والده مانع بسؤاله: يقول العامل أنك جئت هذا الصباح للمحل، خير ماذا لديك؟

توقع دخيل ذلك السؤال لذا فقد أجابه: يوجد رجل لديه ببغاء

نادر يريد أن يبيعه، لم أجد أفضل من المحل لمواعدته.

- هل جاء؟

- للأسف، لا، انتظرت، وأخبرته بذلك، ولكن اكتشفت أن هنالك

من دفع له مبلغًا جيدًا وحصل على الطائر.

صدق الوالد الخبر، وخرج دخيل من دائرة شك الختم.

بقيت مشكلة أخرى، وهي أخذ بصمة الجد وإزالة الحبر الذي

سيكون علامة واضحة على الإصبع بعد الاستخدام، المشكلة الأكبر

هي أنه من الصعوبة أن يكون جده وحيدًا في مجلس الرجال الكبير،

ففي حالة عدم وجود أحد أعمامه أو عماته أو والده، فمن المؤكد

سيجد سعاد جالسة تتحدث عنده، ولو أخذ بصمته أمامها، فسيعرف

الجميع بالأمر، فهي بقدراتها التفكيرية المحدودة لا تعي أهمية أن

يكون هذا البيت خاصًا بها مع زوجها وأبنائها، وقبل كل ذلك وبعده

هي لا تعرف الكذب أو الخداع، فكيف إذا كان الأمر فيه نصب

وحصول على البيت بتزوير وتزييف، لذا لا بُد أن تكون خارج البيت

ليقوم بفعلته، وبعد ذلك تبقى مشكلة ذلك الممرض الشرق آسيوي،

فبحكم عمله لا يترك جده وحيدًا مطلقًا، لذا فقد اتفق مع صديقه «أبو

عطا» أن يتحلل صفة رجل دين جاء للقراءة على جده، حينها طلب من

الممرض المكوث خارج البيت حتى انتهاء القراءة، في الوقت الذي

كانت فيه زوجته سعاد خارج المنزل في زيارة لوالدتها.

كان دخيل الله ممددًا على فراشه، شبه نائم وعندما فتح عينيه،

وجد قرب سريره دخيل ورجلاً ذا هيئة غريبة، توجَّس منه خوفًا لذا

أراد أن يصرخ، ولكن لم يستطع، سمع دخيل يقول له وهو يمسك

بإبهامه: «سامحني يا ييّه، هذي ورقة تنازلك عن البيت لي ولزوجتي

سعاد، بس أهلك تبصم».

لم يكن دخيل الله لديه القدرة على الصراخ أو سحب يده أو الاحتجاج، توسّعت حدقتا عينيه، ثم أغمضهما، لم يرد أن يشاهد الورقة، وكم تمنى، أن تكون لديه قدرة منع صوتي دخيل والرجل الذي معه لكي يريح جسده من سماع ما يعكر عليه تلك القطرات الباقية من حياته!

سمع دخيل يقول لصاحبه: «هل اختفت آثار الحبر من الإبهام؟». ليرد عليه الرجل: «انتهينا، لا آثار ولا رائحة، انتبه للورقة، أنت تملك البيت الآن، أخبر زوجتك بذلك، ستكون سعيدة».

سمع دخيل يجيبه: «صعب أن أخبرها الآن».

ابتعد الصوتان بينما كانت تضج في أعماق دخيل الله كل الدعوات وكل اللعنات على ذلك الرجل، الذي أمسك بيد دخيل ليسلك طريقًا شائكًا بدأه بالنصب على رجل أحبه مع زوجته كثيرًا، تمنى أن يصرخ في وجه ذلك الرجل أو يطلق لعنته التي ألفها البعض: «عساك للساحق والماحق والبلاء المتلاحق الذي يسحقك ويمحقك ووين ما تروح يلحقك».

بعضُ الكلامِ للجميعِ
بعضُ الطَّعامِ للجميعِ
كلامٌ قد يُغني عن الطَّعامِ

(17)

تربية وبيع وشراء الحمام منحت دخيل بعض الخبرة في التعامل مع الآخرين، على عكس محل مستلزمات زينة السيارات الذي تقبله إبان تصفية اليمنيين بعد غزو صدام للكويت، لذا فقد قرر أن يقوم بحفظ وثيقة تملك البيت في مكان آمن بعد تصويرها عدة صور، منتظرًا مجيء والده مع عمه عليان ليفاتحهما بالأمر. بالطبع الأمر ليس بالسهل مطلقًا ودخيل الله لا يمتلك ثروة كبيرة فكل ما لديه هو بيت الصالحية ومبلغ بسيط من المال لقاء بيع حصته من دكان الزل

بالديرة لابنه مانع بشهادة جميع رجال أسرة الضبادي وأمام أعينهم،
لذا فبعد انتقال ملكية البيت وفق تلك الوثيقة إلى دخيل وسعاد لن
يكون لديه ما يورثه إلا بضعة آلاف من الريالات حفظها له مانع في
أحد البنوك المحلية.

أحضر دخيل صورتين من الوثيقة منتظرًا قدوم والده مانع وعمه
عليان، استقبلهما، كانا قد أديا صلاة الظهر في المسجد القريب من
البيت، أحضرت سعاد كعادتها القهوة والتمر، طلب منها دخيل الذهاب
للداخل لإعداد الطعام، كان الممرض الشرق آسيوي خارج المنزل
كعادته في الأوقات التي يعرف فيها أن سعاد تجلس عند جدها، بينما
كان الجد يغط في سبات عميق. استغربا وجود دخيل في ذلك الوقت؛
حيث إنه غالبًا يكون خارج المنزل، ولكن بادرهما دخيل بسؤاله: هل
بقائي في هذا البيت متوقف على حياة جدي؟

- تعرف أن البيت ليس لي ولا لعمتك سبيكة، من المؤكد أن
أعمامك وعماتك كل منهم سيطالب بحصّته من قيمة البيت. «كان
ذلك رد مانع».

حينها قاطعه عليان:

- لا تستعجل الأمور، الله يحسن خاتمة أبونا دخيل الله، ويوم
يسترده الله أمانته، يكون لكل حادث حديث.

- وهل تضمنون كلاً من أعمامي وعماتي أن يُبقونا يوماً واحداً
في ذلك الوقت؟

- للأسف الخلافات كبيرة، بالذات عمك عاشق، الله يهديه.

- وهل ترضيان أن يكون البيت هذا لي أنا وسعاد؟

- أنا أتمنى الخير لك ولابنتي سعاد، ولكن كيف يكون ملككما؟

- هو كذلك، لقد تنازل جدي لنا عن هذا البيت.
- معقولة؟ لم يخبرني مطلقًا بهذا الأمر، لا سيما وأنا ابنه الكبير
وأعرف جميع أسرارهِ.

- القضية ليست مجرد كلام. هل عندك ما يثبت هذا التنازل؟
عندها أخرج صورتي العقد وأعطى كل واحد منهما صورة، قرآها
أكثر من مرة، وتأكدًا من صحة الختم والتوقيع والبصمة، واطلعا على
اسمي الشاهدين، مانع تذكرهما، كانا من الذين يترددون على المحل
بصورة شبه يومية، تذكر أن أحدهما مات منذ بضع سنوات والآخر
منذ عدة أشهر، إضافةً إلى أن دخيل أخبر والده بالزمن الذي كتبت
فيه تلك الوثيقة والتي كانت في شهر ذي الحجة بعد زواجه بعام،
حين ذهبت أسرتا مانع وعليان للحج، في حين بقي دخيل وسعاد عند
جدهما دخيل الله وجدتهما فطيمة، وقد كان الأمر قريبًا للتصديق، لا
سيما أن دخيل الله قد طلب من حفيديه السكن في ذلك البيت، وهذا
أمر مخالف لما عُرفَ عنه من عدم رغبته أن يسكن معه أحد من أبنائه
أو بناته أو أحفاده بعد زواجهم.

تمنى مانع أن يرجع والده لحالته الطبيعية ولو لدقائق معدودة
ويخبره إن كانت تلك الوثيقة صحيحة أو غير صحيحة! هو يعرف أن
ولده دخيل أرعن ولكن لا يعرف السرقة أو النصب، بينما سأل عليان
ابنته سعاد عن جدّها وهل صرح هو أو جدتها فطيمة بالتنازل عن
البيت لهما، فكان جوابها بالنفي وأنها لا تعرف شيئًا عن الموضوع،
إضافةً إلى أن جدّها لم يتحدث معها مطلقًا عن البيت أو سكنهما،
عندها عاد إلى المجلس. ليبادر دخيل بسؤاله: التنازل هذا له أكثر من
ثلاث عشرة سنة، لماذا لم تخبر به أحدًا بالذات أنا أو أبوك مانع،

نحن نفرح لك أنت وابنتي سعاد؟

- كنت سأخبر الجميع حينها، ولكن، كانت رغبة جدي عدم إخبار أحد إلا بعد وفاته، وللأسف أنا الآن لم أحقق وصيته، وها أنا أخبركما، أخذ مانع وعليان صورتني الوثيقة وغادرا البيت بينما كان دخيل الله يغط في سبات عميق، عندها جاءت سعاد وكانت دمعة تترقرق من عيناها قائلة لدخيل: «ييون يطلعوننا من هذا البيت، ييه إن شاء الله طيب».

رد عليها دخيل وهو مبتسم: لن يخرجنا أحد من هذا البيت، ييه هو اللي خلانا نسكن هنا ولن نخرج إلا بأمر ييه».

لم تع سعاد الأمر تمامًا، وتمنت أن يفتح جدها عينيه لتتحدث قليلاً معه وتخبره بمجيء والدها وخالها ولقائهما بزوجها وسؤال والدها عن البيت، والفرح المرتسم على عيني دخيل، بقي الجد في سباته العميق، بينما غادرت الغرفة ليتمكن الممرض الشرق آسيوي من تغيير هيئة نومه من الاستلقاء على الظهر إلى الجانب الأيمن؛ حتى لا يُصاب بالحرق ومن ثم التقرُّح جراء بقاءه الطويل والأبدي على السرير.

لها

لتلك الحمامة، رفعت يدي

حلّقي قريباً

أنا المكان

(18)

في فترة سابقة حاول عاشق أن يستبدل بيت الصالحية بفيلاً صغيرة في ظهرة البديعة غرب الرياض، مع إضافة بعض المال الذي يوزع بين أبنائه وبناته بالتساوي، لأنه أب الجميع أولاً، ولأن الفيلا التي اختارها تقع في حي بعض أهاليه غادروا الصالحية والعود والمرقب منذ سنوات وفضلوا السكنى هناك لذا فلن تتغير على والده دخيل الله البيئة مطلقاً، بل ستتحسن فبدلاً من البيت الشعبي سيسكن في

فيلا صغيرة، وبدلاً من تلك الأزقة الضيقة والعشوائية سيكون الحي الذي سيتنقل إليه أوسع وأرحب شوارع، والأمر الأكثر أهمية هو تغيير التركيبة السكانية لحي الصالحية بحيث أصبح غالبيتهم من الجاليات العربية وبالذات من السودانيين، ذلك الاقتراح لقي رضا من الغالبية باستثناء مانع وعليان ودخيل الذي هدد وتوعد طالباً عدم بيع البيت والانتقال منه، لعدة أسباب أهمها قربها من المحل الذي يبيع فيه مستلزمات زينة السيارات في دوار الخرج، ولوجود حظيرة الحمام في سطح المنزل.

كان عاشق يعلم أن دخيل أرعن، وقد ينفذ تهديده، بينما كان رأي كل من عليان ومانع ووافقهما على ذلك الدكتور نوح أن تغيير المكان قد يؤثر على نفسية والدهما، لا سيما أنه على وضعه الحالي لا يغادر البيت مطلقاً، ولا يهمه من يسكن بالحي أو كيف يكون شكل المنزل. فكرة تغيير المنزل لم تكن مبادرة من عاشق بقدر ما هي أمر من سويّر النسيجان بأن يطرح تلك الفكرة حتى يتعدوا عن ذلك الحي القديم إلى حي أفضل وأرقى، وعندما أخبرها بما تم في ذلك اللقاء وتهديد دخيل لزوجها، قالت: احذر من ذلك «العربي مربي الحمام». عندها فكرت بالتضييق عليه وإبعاده عن الحي بأي وسيلة، حيث بدأت بالبحث عن صاحب المبنى الذي يوجد به محل دخيل لبيع مستلزمات زينة السيارات لشرائه، ومن ثم إخلاء تلك الدكاكين بحجة تجديد المبنى، ولحسن حظ دخيل بأن صاحب ذلك المبنى رفض بيعه مهما كان إغراء المبلغ المدفوع، وقد وصل ذلك الخبر لدخيل عندما أخبره صاحب المحل المجاور له أن هناك امرأة تدعى سويّر أرادت شراء المبنى لتستثمره وأن صاحب المبنى رفض البيع، عندها

علم أن زوجة عمه عاشق لم تكن ترغب في شراء المبنى بقدر رغبتها في طرده من المحل الذي يقع في مكان مهم من المنطقة الصناعية القديمة، لم يخبر أحدًا بما حدث، وقد حرص في أول لقاء بعمه عاشق أن يعتذر له عما بدر منه ذلك اليوم، كان دخیل يعلم أن نفوذ سويّر النسيجان قد قوي، لا سيما وأن ابنة أخيها الكبير قد تزوجت ابن أحد كبار ضباط أمن الدولة، ويعلم أن ابن خالته سعد وشقيق زوجته قد تسبب في وضع دائرة حمراء حول أسرته، لذا فقد بقي مسالمًا وخائفًا أن يأتي زمن يرى فيه أنه بلا مأوى. ربما هذا الأمر من الأسباب الخفية التي جعلته يتشجّع ويزور وثيقة ملكية البيت، وهو الآن وبعد امتلاكه لتلك الوثيقة يشعر بالطمأنينة، ولن يخاف من سويّر النسيجان ولا كافة عائلتها مهما علت منزلتهم وتوسّع نفوذهم في المجتمع والدولة.

ضوءٌ يلوح من بعيدٍ

وجهك، ربما

وجهك فقط

(19)

مانع وعليان يعلمان أن قيمة بيت الصالحة لا تساوي شيئاً أمام
ثروة عاشق وزوجته، وأن الدكتور نوح ليس بحاجة لذلك المبلغ الذي
سيتقاسمه مع أخوين وثلاث أخوات، وقد تحتاج كل من سبيكة
وحسنا ولولو بعض المال، ولكن من المؤكد أن سبيكة ستفرح
باستقرار ابنتها في بيتٍ تمتلك جزءاً منه، وربما وضع سعاد الذهني
سيجعل كلا من حسنا ولولو ترضيان بانتقال ملكية البيت لدخيل
وسعاد، لا سيما أن المبلغ الذي سيحصلان عليه ليس كبيراً مطلقاً،

وبالذات في حي مثل الصالحية أغلب بيوته الشعبية لا تتجاوز قيمتها المئتي ألف ريال، ربما كان سؤال أغلبهم لماذا هذا التنازل، ولماذا لم يخبرهم به والدهم دخيل الله!

أبو عطا أشعر دخيل بأهمية الهدوء والصبر، وأن المعارضة من انتقال ملكية البيت له ليس طمعًا بقيمته ولكن حسدًا، لأن جدهم دخيل الله اختاره وتنازل له مع زوجته، ليكون بيت الصالحية ملكًا لهما، وهذا يعني أن جده منحه هدية خاصة وفضله على جميع أسرة الضبادي، وهذا أيضًا من جانب آخر يدل على رضا الجد والجدة عليهما.

لا يخفى على دخيل حرص جده عليه، ومعاملته الخاصة له، الأمر الذي جعله يتساءل لماذا لم يفكر أن يتنازل عن البيت، وهل كان لديه خطة للتنازل، ربما فكر بهذا الأمر ولكن موت زوجته المفاجئ جعلته يفقد الأمان. دخيل أرعن لن يتوانى عن بيع البيت لو امتلكه، وعندها سيفقد دخيل الله الاستقرار إلى الأبد، وربما يكون مقره الأخير دور العجزة، ولكن هو لم يتنازل، ولن يتنازل، لقد طلب من حفيديه الإقامة في بيت الصالحية ليكون لدخيل الفرصة لجمع المال، ومن ثم بناء بيت لأسرته.

الجدة ماتت والجد في حياة البين بين، لم يتنازل مطلقًا، والورقة وثيقة تنازل عليها توقيعه وختمه، وموقعة من قِبَل شاهدين لم يشهدا مطلقًا، هما الآن في دار البقاء بعد اعتاقهما من سؤال أسرة الضبادي عن صحة التنازل في دار الفناء.

القرار الذي اتخذه كل من مانع وعليان هو أن يجمعوا رجال الأسرة في لقاء استثنائي ويخبراهم بأمر البيت.

علاقة مانع وعليان الجيدة جعلتهما يتفقان على تقسيم مهام اللقاء، ربما لو كان الأمر بيد مانع فقط لرفض عاشق الحضور، ولكن مساعدة عليان جعلت الجميع يوافق على الاجتماع، ليجتمع بعد مدة ليست بالقصيرة الإخوة الثلاثة، وأزواج البنات الثلاث، مع بعض أبنائهم، إضافة إلى أحمد شريف الذي جاء بصحبة الدكتور نوح الذي عاد وحيداً من أمريكا بعد وفاة زوجته ودفنها هناك بناء على رغبتها.

ماذا تبقي من كلامٍ
ماذا تحقّق من سلامٍ
هل تُجيبُ الحمامة؟

(20)

الطريق بين دوار الخرج والبيت في حي الصالحية بالرياض لا يستغرق أكثر من عشر دقائق مشيًا على الأقدام، أزقة الحي وبيوته الشعبية شاهدة على حكايات أجيال من الناس تعاقبت على السكنى فيه حتى أصبح للعمالة الخارجية النصيب الأكبر.

لم يفكر مطلقًا أن يتأخر هذا المساء، هو ذاهب الآن إلى بيته أو ما يعرف الجميع بأنه بيت جده، سيقابل أغلب الرجال في عائلته، في مجلس الرجال الكبير، يجب أن يحضر هذا اللقاء. يعرف أن كثيرًا

ممن هم الآن في بيته، أو تحديدًا في بيت جده، لا يعترفون به مطلقًا، هو يعلم أنه يقبع في الهامش، ربما كهذا الحي، لن تكون الكلمة له بين أولئك الرجال مهما حاول، ولكن هو يثق بكل تأكيد أن الكلمة الأخيرة ستكون له، هكذا كان يفكر دخیل وهو يدخل البيت الذي يقطنه مع جده وزوجته وأبنائه، وأزواج من الحمام يعتبرها أكثر حميميةً من بني البشر، يدخل بيتًا شَيَّد منذ قرابة الثلاثين عامًا بالطوب والحجر، واشتمل على بضع غرف صغيرة، إضافةً إلى مجلس كبير خُصَّص للرجال.

يدخل بريثًا مسلَّمًا على الجميع مقبلاً رأس جده ووالده.
يسمعهم يقولون:

- الله يحسن خاتمته.

- الوالد له حق الزيارة والاطمئنان على صحته.

- مشاغل الدنيا، وإلا من المفترض أن نجتمع كل مساء.

راقب جده المسجَّى على سرير في صدر المجلس، الذي لم يعلق على حديثهم مطلقًا، كان بصره شاخصًا إلى السماء.

جلس في الجانب الأيمن على مقربة من سرير جده، ساعد والده على وضع بضع مخدات خلف ظهر ذلك الجد، بحيث أصبح شبه جالس ومطل على الجميع، بدأ يراقب جده الذي جال بعينه اللتين أضناهما المرض وأنهكتهما السنوات.

المجلس مكتظ برجال يعرفهم، ورجال مَلَّ من معرفتهم، وبعض الرجال الذين يتمنى لو تمكن أن يعرفهم أكثر، حفنة من الرجال كانوا منذ زمن يلتقون في هذا المجلس، يتحدثون، يتشاءمون، يتناولون القهوة، الشاي، يسعلون، يمسح بعضهم لحاهم بأيديهم المعروفة،

يسبحون، يهللون، يتحدثون، يقولون شعراً، قصائد لشعراء معروفين، وقصائد لشعراء مجهولي الهوية، وقصائد لهم، وقصائد لم تكن مطلقاً لهم، مجموعة من الرجال لا يدري ماذا يريد منهم تمامًا، جاء بعضهم مرافقين لبعضهم، هذا البعض الذي تربط بينهم هذه العلاقة الأبدية، أب وابن وعم وابن عم وزوج ابنة، ينتظر بعضهم نهاية اللقاء ليعود إلى حياته الخاصة، وينتظر البعض الآخر فرصة سانحة ليتحدث عن أمر يشغله، أو ليذكر مثالب البعض، أغلبهم يُكِنُّ العداً لأغلبهم، ومنهم من تتوقف علاقته بالأسرة على الرجل الجالس على سرير في صدر المجلس والذي عُرِفَ منذ زمن بعيد باسم «دخيل الله الضبادي»، ذلك الشاهد الصامت القابع على سرير بينهم، جميعهم يتبعونه، هم قطع من الرجال يجمعهم لقب واحد، يمر من خلاله، ملامحهم متشابهة، يجتمعون دائماً في (الأعراس) مرحبين بالمهثئين، ويجتمعون دائماً في (المآتم) مستقبليين المعزين، بعضهم امتداد له، وبعضهم امتداد لبعضهم.

عمّ اللغظ وتحدّث الجميع عنه، قرّروا البحث عن امرأة تكون زوجة له يحق لها أن تطلع على عورته، ترعاه بقية أيامه، وقرّروا البحث عن مقر جميل لا يحمل ذكريات مثل ذلك البيت الذي يقطنه. كان دخيل يراقبهم بهدوء، يستغرب قراراتهم الارتجالية بشأن جده، هو يعيش بأمان، وزوجته تعني به، والمكان ليس بالسيئ مطلقاً، أغلبهم ينتظر نهاية هذا الرجل، نهاية قد تكون حزينة للبعض، سيحزن دخيل بكل تأكيد، فموت جده قد يكون موتاً له ولزوجته وأبنائه، هو لا يريد أن يموت، ولا يريد أيضاً أن تتحسن صحته فيصبح قادراً على الكلام، لا يريد أن يعود إليه الوعي، ليبقى كما هو الآن، يجلس

حوله الرجال، يستمع إلى حديثهم فقط.

- حرصت كثيراً على أن نلتقي هذا اليوم، لا ليحكي كل واحد قصة ويقول الآخر أحياناً من الشعر ونتحدث عن همومنا وأمورنا كما يحدث دائماً عندما نلتقي، ولكن ثمة أمراً مهماً، لقد شغلتنا الدنيا فلم نلتق منذ زمن دون أن يتخلّف منا أحد، هذا والدنا دخیل الله، أتعرفون مقدار الوحدة التي يعاني منها؟

اشربأت الأعناق لتتلقّف كل كلمة يقولها مانع، الذي أكمل حديثه قائلاً:

- منذ أن انتقلت والدتنا إلى الرفيق الأعلى وبعد ذلك إصابته بالجلطة وهو صامت، أنتم تعلمون ذلك، وتعرفون أننا ذهبنا به إلى أطباء ومقرئين ولكن دون جدوى.

توقع دخیل أن يقول والده ذلك الكلام ليجعله مدخلاً لتحديد مصير جده، وبصورة أدق تحديد مصيره، وعلاقته بكل أقربائه، لكنه فوجئ بتدخل عمه عاشق قائلاً:

- قال لي الطبيب أن والدي يحتاج إلى رعاية خاصة.

لم يعلق أحد على كلام عاشق الذي أكمل قائلاً:

- تعرفون أنني أحضرت ممرضاً للعناية بوالدي.

لم تطل فترة الصمت بعد كلام عاشق، ليسمع الجميع نوح وهو يقول:

- والدنا يعاني من الوحدة، يحتاج إلى امرأة ترعاه وليس لممرض.

شعر دخیل أن كل كلمة سيقولها عمه نوح مهمة، لذا التزم الصمت، ليكمل عمّه الحديث، وفعلاً واصل حديثه حول أهمية المرأة

في حياة الرجل، وبالذات من هو في سن والده.

تداخل بالحديث عليان قائلاً:

- زوجتي أم راشد تتردد عليه يوميًا لترعاه، وبقية أخواتها ونسأؤكم يفعلن ذلك، وهذا أقل ما يقدمه لأب رعاهن وأحبهن. عمّ اللغظ وتحذّث الجميع عنه، قرّروا البحث عن امرأة تكون زوجة له ترعاه بقية أيامه، وقرروا البحث عن مقر جميل لا يحمل ذكريات مثل ذلك البيت الذي يقطنه.

تمنى الجميع أن يتحدث، أن يقول ولو كلمة واحدة، فمنذ أيام العزاء بوفاة شريكة عمره فطيمة أصبح من النادر أن يتكلم، ومنذ وفاة تلك المرأة التي كانت تبث روح السعادة والفرح بين الجميع لم يجتمع في مجلس الرجال الكبير مثل هذا العدد من الرجال ممن له علاقة بدخيل الله الضبادي، انتظر الجميع أن يتحدث، ولكن لقد خائته الكلمات، فعَمَّ الصمت المكان، الجميع يعلم أن هذه الحالة انتابته منذ فترة ليست بالقصيرة، ولكن لم تكن بعد وفاة زوجته، لذا فالأمر يعيه الجميع ويعرفون أن أبناءه وبناته حاولوا أن تتحسن حالته ويخرج من دائرة الاكتئاب التي يشعر بها بعرضه على بعض الأطباء والمقرئين، ولكن حالته تفاقمت، لم يعلم بعضهم أن ثمة أسبابًا كثيرة سببت له حالة الصمت والاكتئاب هذه، بعضها يعلمها مانع ابنه الأكبر وعليان زوج ابنته الكبرى.

هذا دخيل الله العالم المغلق الميال كثيرًا للصمت يقبع على سرير أُعِدَّ له خصيصًا في مجلس الرجال الكبير، بعد أن أنهكته السنوات الخمس والتسعون، وبعد فقدان شريكته حياته، وبعد أن شعر في ذلك الاجتماع أنه أصبح ثقيلًا على الجميع، أُصِيبَ بجلطة

أفقدته النطق، إضافةً إلى الحركة، وبقي السمع والبصر والقلب النابض الذي يؤكد للجميع أنه لا يزال حيًّا يعي ويعرف من يزوره، ويسمع ما يقوله كل واحد من زوّاره له، هو على قيد الحياة فقط، قيد لا علاقة له بكل ما في هذه الحياة من فرح أو حزن، قيد يكبل حركة كل المقربين له، لذا فقد كانت المبادرة من عاشق بتأمين ممرض من (شرق آسيا) ليقوم برعاية والده، لكونه ابنه الذي يهّمه أمره فهي هو يقولها بفخر أنا عاشق بن دخيل الله الضبادي، وعلى الرغم من ذلك يلمح من نظرة أبيه بعض السخرية، شيء يشبه الصدى يتردد في أرجاء مجلس الرجال الكبير: «أنت عاشق سوّير».

هو زمنٌ للبشرِ
أبرياءٍ أولئك البشرُ
حينَ يفقدونَ حرفَ الباءِ!

(21)

تدار القهوة ويزداد الجدل، لماذا يجتمع هؤلاء الرجال وبالذات في هذا المساء في هذا المجلس؟ وماذا لدى مانع؟
كان دخيل بن مانع يراقبهم صامتاً ويتأمل وجوههم متسائلاً: هل يعرفون كل شيء عنه، وهل حقاً هو لا يعني لهم شيئاً مطلقاً! حينها يضج في داخله السؤال: «ما الذي تريده من هؤلاء؟» ينقلب السؤال ليواجهه: «ما الذي يريدونه مني هؤلاء؟» يتأملهم، ها هم خمسة عشر رجلاً هو من ضمنهم يحيطون بجده.

قد يكون دخيل أقربهم إلى جده دخيل الله الضبادي، فهو الابن الأكبر لمانع وزوج سعاد ابنة عليان وسبيكة الابنة الكبرى لهذا الجد، قد يكون جزءًا من هذا الجد، جزءًا من عالم خاص يرتبط به كثيرًا، يقترب منه ويبتعد كثيرًا في وقت واحد، هو وزوجته سعاد وذريته قرّروا البقاء معه حين ابتعد الجميع عنه، هو الأول والأخير، هو الأقرب والأبعد، هو جزء من زمن أسرة دخيل الله الضبادي.

يتحدث هؤلاء الرجال عن أهمية الرعاية الصحية، يتحدثون عن الإحساس بالوحدة، بكل تأكيد دخيل يعلم أن الأمر ليس كذلك بل هو أكبر، إنه أمر مرتبط به وبجده دخيل الله، وهي حكاية بدأت منذ زمن بعيد وقد لا تنتهي في لقاء عابر عند رجل أنهكته السنين والمرض. دخيل الله الضبادي أمامهم الآن، شاهد الصمت الأزلي، لا يحب مطلقًا الحوار، أو التفاوض، يتحدثون، ولكن دون نكت أو طرائف من بكر وعيسى، ومن المستحيل أن يُسمع صوت الطبل، كتلة الفرحة «فطيمة» غادرت في يوم الحزن الأمريكي بسقوط برجتي التجارة العالمي، وغادر الفرحة أسرة الضبادي، هل تجرؤ إحدى النساء أن ترقص أو تغني؟ هل يقدر أي واحد من هؤلاء الرجال أن يتحدث بصدق ووضوح؟ هم يتحدثون فقط عن مرضه، عن وحدته، ولكنهم لا يتحدثون عن أنفسهم عن أمراضهم المتعددة، لقد كان دخيل الله واضحًا في حياته، هذا الوضوح أفقده كثيرًا من الأصدقاء والزبائن، وجعل اليوم الذي ترك فيه محل الزل أشبه بالعيد للبعض، حتى إنه سمع ذات يوم من يقول لابنه مانع: «الله يعينك كيف تتحمل والدك؟» ويعرف كل أسرة الضبادي أن والدهم دخيل الله «صعب المراس» وهذه الجملة أطلقها ابنه الدكتور نوح عندما تحدث عن طبيعة والده،

ولكن دخیل الله الضبادي على الرغم من كل ذلك في داخله طيبة
وحب مغلف بجفاف مدينة الرياض الصحراوية، ولذلك أحبه الجميع،
وبكل تأكيد هذا الحب يتضاءل أمام حب سعاد لجدها، وحب جدها
لها، حتى دخیل لم يكرهه مطلقاً، لا يزال يحبه، ولكن إنه الخوف
من أناس فقدوا الحب، وفقدوا الصفاء، يجتمعون، يتجادلون «بيت
أم زوجة»، في مجلس الرجال، في بيت الصالحية، أمام رجل فقد
القدرة على الكلام يمارس بعض الرجال شهوة الكلام.

هَـا هُوَ الطَّرِيقُ أَمَامَكَ

مَسَارٌ وَاضِحٌ

مَسَارٌ فَاضِحٌ

(22)

خمسة عشر رجلاً لخمسة عشر عالمًا مختلفًا، يجتمعون في مكان واحد، مجلس الرجال، هذا ما يطلقون عليه دائماً. يجلسون حول ذلك الرجل الصامت، الذي اكتفى بالنظر إليهم وتأملهم.

هذا المجلس نوافذه تطلُّ على شارع غير نافذ، مجلس الرجال يحتل مساحة واسعة من ذلك البيت الكبير، كما كان يتصوره الأطفال، وحتى الآن لا يزال كبيراً، ما دام دخيل الله الضبادي يقطنه، لا يزال

ذلك البيت كبيرًا، بالمقارنة بما يحيط به من بيوت شعبية في حي الصالحية بالرياض.

كان ذلك الرجل الصامت المُحَاط بما يشبه الإطار الخشبي يتابع حديثهم، أراد أن يصرخ، لم يستطع. جسده متخشب، إنهم يتآمرون عليه، يبحثون عن حل لمشكلة خاصة به، لا يريد أن يتزوج، ولا يريد أن يغادر هذا البيت الذي يحمل أجمل ذكريات حياته قسرًا، ثلاث سنوات قضاها وحيدًا بعد وفاة زوجته فطيمة، الجميع يرى أنه بحاجة إلى امرأة تعيش معه الأيام المتبقية من عمره.

حسبه أن يتساءل: ألا يكفي وجود دخيل وسعاد وأطفالهما في هذا البيت!

ثمة أشياء كثيرة يحتاجها دخيل الله الضبادي، لا مكان للزوجة بينها، ربما من أهمها أن يتركوه يعيش بقية عمره بسلام، وأن يكونوا جميعًا مثل سعاد.

وحين يكون ذلك صعب المنال فالموت أرحم، ولكن الموت لم يطرق الباب بعد، فليكن نصف ميت، ليكن في حالة أشبه بالغيوبة، هو لم يمُت وليس حيًا، هو بين بين، يسمع ويرى، ولا يتكلم، ليكن شاهدًا صامتًا على موت جسده، رويدًا رويدًا حتى يعلن على الملأ عن موت دخيل الله الضبادي والد كل من مانع ورجل الأعمال عاشق والدكتور نوح، ووالد سبيكة زوجة عليان بن رزق الله وحساء ولولوة زوجتي الشقيقتين بكر وعيسى، وجدٌ لعددٍ كبيرٍ من الأحفاد.

هو لم يمُت، لقد بقي شاهدًا على زمن البين بين، تمنى أن يعرف ماذا تم بشأن أولئك الرجال الذين فاجأهم بغيوبته، ربما تكون جدران ذلك المجلس شاهدةً على ما حدث، وجسده الصامت الواهي الممدد

على السرير هو الرجل الذي يعني في داخله لأنه سيسمع ويرى ولكن لن يتكلم، لن يقول إن حفيدي دخيلٌ غدر بي، وزورٌ توقيعي وأخذ بصمتي قسرًا في وقت ليس لي حيلة ولا قوة في أن أرفض أو أوافق. تحدث الجميع عن كل شيء، وانتظروا مبادرة لإزالة الخلافات بين بعضهم، وبالذات بين الأخوين مانع وعاشق، كان راشد أكثرهم خوفًا من تلك المبادرات، لا سيما إذا كانت المبادرة من خاله مانع ووالده عليان بطلب إعادة العلاقة مع دخيل، حيث إن حمدة حذرت من التنازل، فدخيل هو الذي يجب أن يعتذر لراشد وزوجته حمدة. إطلاقًا لم تكن هنالك مبادرات، والأمر الذي جمعهم مانع بسببه لم يُح به بعد، فقد كان يعرف أن هنالك ردود فعل متشنجة، لذا فقد أثر إرجاء نشر الخبر حتى الانتهاء من تناول العشاء الذي ساهمت في إعداد أكلاته الشعبية نساء آل الضبادي.

همَّ بعضهم بمغادرة البيت بعد انتهائهم من وجبة العشاء، ولكن عليان طلب منهم البقاء وتناول الشاي الأخضر.

اجتمع الرجال مرةً أخرى في مجلس الرجال الكبير في الوقت الذي كان الممرض الشرق آسيوي قد انتهى من إطعام دخيل الله عشاءه المكوّن من عصائر طبية خاصة تحتوي على نسب غذائية جيدة تُبقيه حيًا دون أن يتمتع حقيقةً بطعام أو شراب، غادر الممرض المكان بعد أن أجلسه على سريره في وضع صحيّ.

تأكد مانع أن جميع الرجال في المجلس ثم بادر قائلاً: هل أخبر أبوي دخيل الله أحدكم شيئًا بشأن هذا البيت؟ كانت إجابة الجميع بالنفي.

حينها قال عاشق: هذا الاجتماع لأجل هذا البيت، الآن وافقتم

على تغييره.

رد عليان: الحقيقة أن البيت لم يعد لنا يد في بيعه أو استبداله
ببيت آخر.

قال نوح: من الخطأ التفكير ببيع أو تغيير هذا البيت ووالدنا على
قيد الحياة، أحسن الله خاتمته.

عندها قرر مانع إخبارهم بالأمر قائلاً: أبوي تنازل عن هذا البيت
لدخيل وسعاد.

سمع الجميع صوت راشد مرتفعاً وهو يقول: معقول هذا!
«كيف يتنازل عن البيت وهو لا يستطيع الحركة ولا الكلام ولا
يعي مطلقاً ما يدور حوله؟» قال ذلك عاشق غاضباً وهو على وشك
الوقوف ومغادرة المكان.

«التنازل هذا كان قبل قرابة ثلاث عشرة سنة، وهذه صورة من
وثيقة التنازل» قال ذلك عليان وهو يقدم صور الوثيقة.

اطلع الجميع على صور التنازل تلك، وطلب عاشق الأصل
ليقدمها لمحامي زوجته ليتأكد من صحتها، عندها اعترض دخيل
وقال لهم: الوثيقة في مكان آمن ولن ترى النور الآن.

ثم أضاف قائلاً: ليسامحني الله ثم جدي الذي لم يرغب أن يعلم
أحد بهذا التنازل إلا - بعد عمر طويل - أن ينتقل للرفيق الأعلى.
قال ذلك دخيل وهو ينظر إلى جسد جده الممدد على السرير،
والذي كانت عيناه تلمعان ببريق خاص، القبول أو الرفض، لا أحد
مطلقاً يعي، كم تمنى كل واحد باستثناء دخيل أن يتحدث دخيل الله
ولو لثوان قليلة، أن يقول، صادق، أو كاذب، وكم كان دخيل يخاف
أن تبدر من جده أي حركة توحى بالنفي ولو كانت هزة رأس!

أخذ كل من عاشق وراشد بن عليان صورة للوثيقة، بينما علق نوح بأن قرار والده واضح منذ أن طلب من دخيل وزوجته السكنى معه في هذا البيت، لذا لا مجال للاعتراض. وأحسّ بالراحة كل من مانع وعليان بعد أن علم الجميع بالأمر، ربما دخيل أكثر الجميع اطمئناناً لأنه أتقن تمرير الكذبة على الجميع ولن يشك أحد بملكيتة للبيت، لذا فما إن غادر الجميع البيت حتى ذهب إلى مركزه قرب حظيرة الحمام، وطلب من سعاد أن تعدّ له شايًا وعمّر أرجلته وبدأ يترنم بأغنية: «يا طيب القلب وينك!».

سأبحثُ عنك
سأرحلُ بعيدًا عنك
لأبحثَ عنك

(23)

«متى نرتاح من أهلك ومشاكلهم!». قالت ذلك سوّير بعد أن اطلعت على صورة وثيقة ملكية البيت، لم يكن يهمها مطلقًا انتقال ملكية البيت؛ لكون ما سيحصل عليه زوجها بعد وفاة أبيه من قيمة البيت لا يساوي مطلقًا أرباح أسهم إحدى الشركات التي تملكها في نصف عام، ولكن هذا جعلها تتساءل لماذا دخيل بالذات ولماذا لم يذهب الأب دخيل الله إلى المحكمة للتنازل لحفيديه.

تفحصت صورة الوثيقة مرةً أخرى ولاحظت أن تاريخ الوثيقة كان في موسم حج حيث تكون المحاكم مُغلقة، ولكنها رأت أن ذلك لا يمنع أن يذهب الجد والحفيد إلى المحكمة للتنازل، وردًا على تساؤلها أخبرها عاشق بأن صك تملك البيت وجميع أوراق والده الرسمية لدى مانع، لذا فمن الطبيعي أن يكتفي دخيل الله بكتابة وثيقة من أوراق المحل، فربما قد يعترض الابن أو يطلب أخذ رأي الجميع. بقي شيء لم تفهمه سوّير عن وضع البيت، لذا فقد سألت سوّير زوجها عن سبب غضب دخيل قبل سنوات حينما طرح فكرة استبدال البيت بالفيلا التي في ظهرة البديعة، حيث كان من المفترض أن يكون أكثر هدوءًا لكون الوثيقة لديه، ولن يمسّ أحد البيت غيره بموجبها، وقد برر عاشق ذلك بأنه في ذلك الوقت لم يملك جرأة مكاشفة الجميع بالوثيقة، وأضاف أن دخيل اعتذر له عند أول لقاء تم بينهما. مزقت سوّير صورة الوثيقة، لتُنتهي الجدل حول ملكية بيت الصالحية لدخيل وزوجته، ولتقول له: إذا مات أبوك ووزعوا ميراثه، تصدّق بالمال، حنًا في غنى عن قروش الضبادي.

شعر عاشق بن دخيل الله الضبادي بأنه ضئيل جدًا أمام قامة سوّير النسيجان العملاقة، تقبل كلامها بهدوء وذهب إلى مكتبه. كان يقول في داخله: أنا اخترت أن أكون عاشق سوّير النسيجان، لأقبل هذا الوضع، فبدونه سأصبح مثل دخيل أفرح بحصولي على بيت شعبي في حي الصالحية، فعاشق سوّير النسيجان يملك، إضافةً إلى أرصدة متعددة في البنوك، عمارة في حي العزيزية بمكة، ريعها السنوي ضعف قيمة بيت الصالحية، إضافةً إلى محل الديرة.

كانت سوّير النسيجان تعمل جاهدة على إلغاء اسم الضبادي من

قاموس حياتها، حتى إنها فكرت أن لا يتجاوز أسماء أبنائها عن اسم الأب والجد، وغالبًا تضيف (ال) التعريف لعاشق ليصبح وكأنه اسم العائلة وعندها يتوقع الناس أن مازن العاشق وطارق العاشق ورحاب العاشق من أسرة لا علاقة لها مطلقًا بعائلة الضبادي.

كانت سوّير النسيجان تعرف كثيرًا أن العائلتين من طبقة واحدة، فقدت تسلسلها النسبي في زمن ما فبقيت معلّقة برابع أو خامس جد، الذي لم يُفصح عن نسبه الحقيقي لأسباب ربما قبلية أو قيامه بمهنة يترفع عنها أهل قبيلته فتسقط به وبذريته من برج قبيلته العاجي، وقد كان بإمكانها مع أخويها البحث والاستقصاء أو دفع مبالغ معينة لأحد شيوخ القبائل المعروفة لتلحق نسب أسرتها بقبيلته، ولكن رأت أن اسم عائلتها له بريق خاص، لا سيما وأن ثروة عائلتها ازدادت بعد الطفرة وأصبح أخواها من وجهاء المجتمع، وتوطدت علاقاتها بالعديد من نساء الطبقات الراقية، لذا فقد قالتها صريحة أكثر من مرة لعاشق: «والدك له حق عليك» أما بقية العائلة وبالذات «الدلال مانع» فرجاء ابتعد عنه، أنت تتذكر ما فعلته زوجته مع حمدة عندما رفضتا تزويج رحاب لابنه عبد الله، وتذكر ما نشره بين الناس عن أسرتنا، حتى إنهم جعلونا فاسقين كفارًا.

لم يحتج عاشق للتذكير، فقد أُصيب حينها بحالة اكتئاب شديدة للصراع الذي تفاقم مع عائلته بعد رفض زوجته عبد الله ولد مانع، إضافةً إلى أن علاقته بأخيه نوح توترت منذ مشروع أمه فطيمة تزويج ابنه مازن بابنة نوح فطيمة.

لم تفتخر سوّير مطلقًا بالدكتور نوح، ولم تسعَ للتعرف على زوجته «سيتا» والتفاخر بها في مجتمعاتها المخملية، بل كانت تسخر

من ملامحها الصينية، وعندما بلغها خبر وفاتها لم تقم بتعزية نوح
ولا ابنته فطيمة، مما زاد من الفجوة بين العائلتين، لقد كانت سويّر
تنتظر وفاة دخیل الله بفارغ الصبر لكي تسدل الستار على عائلة تدعى
الضبادي.

بيضاء

حمامة بيضاء

وحدها فقط تمتلك كل الألوان

(24)

اجتماع العائلة ولقاء جميع رجال عائلة الضبادي، ونقاشهم وارتفاع أصواتهم، وأخيرًا الفرح المرتسم على محيا دخيل، لم يستوعبها عقل سعاد، حتى حينما قالت لها أخواتها: «مبروك البيت» لم تعرف مطلقًا ماذا تعني هذه التهنة! حتى أخبرها بهدوء دخيل بتنازل جدهم لهم عن بيت الصالحية الذي يعيشون به الآن، وقد أحسّت بالراحة والاطمئنان عندما قال لها دخيل: «بعد عمر طويل وعندما يموت جدي سنبقى في هذا البيت ولن يستطيع أحد أن يخرجنا منه».

سعاد فاجأها الخبر، وقالت لدخيل: لماذا لم يخبرني جدي بذلك؟ عندها أخبرها دخيل بأن حكمة جدي تدرك أن السر الذي يتجاوز الاثنين يشيع، وهو لا يريد أن يرفض أحد أن يكون البيت لنا. وحين قالت له إنه لن يرفض أحد، أجابها بهدوء قائلاً: «يا حبيبتى، أنت طيبة وتتوقعين كل الناس مثلك طيبين، كلهم يضحكون في وجهك، لكن بعيد عنك يلعنونك ويسخرون منك، أولهم أخوك راشد وزوجته حمدة التي هي خالتي وشقيقة أُمي.»

بساطة سعاد وطيبتها وبطء تفكيرها كانت عوناً لدخيل، فهو لا يريد مطلقاً امرأة ذات خبرة بالحياة لتفهم سلوكيات الشر وتعرف ما وراء كل تصرف، فلو كانت امرأة طبيعية كأخواته أو أخواتها لاكتشفت حتماً أنه زور توقيع جده، ولو تواطأت معه فحتمًا سيكون وضعه صعباً ومخيفاً، لأنه لن يثق مطلقاً بحفظها للسر، ولكنه يشعر بأمان لكون زوجته الطيبة تلقت خبر حصولهما على البيت دون تفكير، أو مناقشة، وعاشت فرحة الاستقرار، وصدقت أن جدها فعلاً تنازل لها عن البيت مع زوجها.

تقبلت سعاد الوضع بهدوء وبكثير من الفرح، وفي صبيحة اليوم التالي طلبت من الممرض الشرق آسيوي أن يتركها مع جدها دخيل الله، كان الممرض قد انتهى من غسل جسد دخيل الله المتخشب، ووضع بعض المراهم الخاصة لتطرية الجلد، وقد ألبسه بمساعدة مانع الذي حرص على زيارته قبل ذهابه إلى محله بالديرة، ومن ثم قام بتبخير الغرفة ووضع بعض دهن العود على ذقن ورأس دخيل الله، وهذا ما جعله مستيقظاً يتأملهما بصمت، وقد نظقت عيناه بالفرح عندما رأى سعاد تدخل المجلس بعد مغادرة الممرض الآسيوي،

والتي قامت بتقيل رأسه وجبينه ويديه، كانت تبكي ثم ما لبثت أن قالت له: "أنا أحبك يا ييّه، الله يخليك ويعافيك، دخيل فرّحني وقال أنت كتبت البيت لنا، البارح البيت مليون، أبوي وخوالي وخالاتي ورجالهم وعيالهم وبناتهم، تمنيت إن يمه فطيمة حية وتشوف هذا الاجتماع، ما غاب إلا سوّير مرت خالي عاشق، أبوي وخالي مانع أحضروا العشاء من عند الطباخ ذبيحة كأنه عرس، أنا قلت لدخيل إنهم مبتهجون لأن البيت صار لنا، لكنه قال لي ما هو كلهم، فيه ناس يضحكون بوجهك وبعيد عنك يكرهونك، ويتكلمون عنك، ليش يا ييّه ما قلت من أول إن هذا البيت لدخيل وسعاد؟ كلهم يحبونك ويخافون منك، ما فيه أحد يقدر يقول لا.

كان دخيل الله ينظر إليها، ويستمع إلى كلامها، لم يستطع أن يعلق أو يقول: «أنت يا سعاد تجمعين بين النقاء والشفافية كالثلج، تستحقين كل الفرح، إذا كانت ملكية البيت تبهجك فهو لك، ولكن الخوف من أن تتلوث قطعة الثلج بوحل دخيل.

الجفنان بدءا يرتحيان رويدًا رويدًا، هل هو إحساس بالأمان والطمأنينة! بكل تأكيد هو كذلك، فوجه سعاد وجه ملائكي يستحق دخيل الله أن يغمض عينيه بعد رؤيته.

خارج السَّرْبِ تحلّقُ
نحنُ سربُ
سربٍ يحلّقُ في الخارجِ

(25)

باستثناء سعد بن عليان، وإلى حد ما خديجة بنت مانع، تبقى عائلة الضبادي خارج إطار التشدد الديني، غالبيتهم ملتزمون ولكن التزامًا لم يصل إلى حد المغالات.

دخيل الله الضبادي عُرِفَ منذ صغره بحرصه على أداء الصلوات الخمس بالمسجد، الأمر الذي جعل إمام مسجد الظهرية يزوجه من ابنته «فطيمة»، على نهجه سار ابنه مانع وابن أخيه عليان، عاشق ونوح أقل التزامًا، بالذات أداء الصلوات الخمس بالمسجد، ربما نوح أكثر من

أخيه عاشق حرصًا على الدين، عاشق شغلته التجارة والسفر، فبحث عن المتعة البريئة، التي لا تتوفر إلا لمن لديه ثروة، وحسبه كذلك، أما الدكتور نوح فقد جمع بين العلم والدين، وفي سنوات دراسته في أمريكا أمَّ بالمصلين أكثر من مرة، وخطب بهم باللغة الإنجليزية جمعًا متعددة، ورَّس المركز الإسلامي في إحدى دوراته، لكنه لم يصل إلى مرحلة الداعية، وبكل تأكيد لن يصل مطلقًا لدرجة ابن أخته سعد. راشد، الأستاذ الذي يعمل في سلك التدريس يحرص أن يكون قدوة، لا يريد أن يكون متشددًا، وهو رجل يحمل في داخله هوس الكسب والحصول على ثروة، هذا يجعله يتنازل عن كثير من المبادئ الأخلاقية، قد يكذب لكي يبيع أرضًا، قد يشهد زورًا، ولكن لا يصل ذلك إلى حد المساس بالدين، يردد دائمًا: «الله غفور رحيم».

هي الصحوة، زمن مثقل بالفتن، ولا سبيل لحياة أفضل إلا سماع ما يقولون واتباعهم، لم يكن قدوة أحمد وإبراهيم ولدي راشد بن عليان، والدهما، فهو إنسان به خير شأنه شأن كثير من أقربائهم، ولكن هؤلاء جميعًا ليسوا كعلمائهم وشيوخهم، هنالك قدوة، وهنالك أناس يملؤهم الجهل، والدهما لا ينفر من سماع المعازف، أما خالهما سعد فرأى فيهما خيرًا غير متوفر في أغلب أبناء أسرة الضبادي، حفظا أجزاء من القرآن، تحولت حلقة القرآن إلى خلية نشاط، رحلات نهاية كل أسبوع إلى إحدى الاستراحات أو المزارع خارج مدينة الرياض، وجدول يتداخل فيه اللهو بالجد، وزيارات لمشايخ غير معروفين يُجلُّونهم ويقدرّونهم، أحمد هادئ لا يكاد يسمع صوته منذ صغره، إبراهيم أكثر جرأة، ولكنه ووفق تربية والده، محب لأخيه حريص على تنفيذ أوامره، وحتى يطمئن راشد على ابنه كانت موافقته للاشتراك

بالرحلات أو أنشطة المراكز الصيفية أن يكونا معًا، لذا فقد اتحدت أفكارهما، لم يختلفا مطلقًا، ربما أحمد أكثر هدوءًا، وإبراهيم أكثر حِدَّةً، ولكن تحولًا إلى شخص واحد يعبر مسارًا واحدًا برضى من والديهما راشد وحمدة، وبمباركة من عمهما سعد، ربما يكونان من طيور الجنة، يحلّقان، يرفرفان في سماء الرياض، لا أحد مطلقًا ينهرهما أو يلومهما، هما نموذج مريح لكل أبوين، حتى جدهما الأكبر دخيل الله تتهلّل أساريه عند رؤيتهما، وجدتهما الكبرى فطيمة تغضب عندما لا يأتيان مع والديهما، مستقبل جميل ومشرق يرسمه أحمد وإبراهيم لأسرة الضبادي، هذا ما كان يتوقعه جدهما الأكبر دخيل الله، وجدهما عليان، وخال والدهما مانع، وبكل تأكيد كل رجال الضبادي ونسائهم يرون أن أحمد وإبراهيم نموذج جيد وجميل للأبناء الذين يجمعون الدين بالدنيا، أما أحمد وإبراهيم فقد امتلأ رأساهما بأوامر ونواهي وخطب وفتاوى، تشكّلت بها حياتهما.

دَع عَنْكَ هَذَا الْفَضَاءَ

دَع عَنْكَ هَذَا الْهَرَاءَ

دَع عَنْكَ هَذَا الْعَنَاءَ

(26)

رغم مرور سنوات طويلة من تجميد علاقته بالقراءة والكتب ظلَّ راشد بن عليان مخلصًا للكتاب في احتفاظه بخزانة وضع فيها ما اقتناه من كتب قبل زواجه، خزانة الكتب هذه كانت ستبقى في دائرة النسيان لولا أن قام ابنه الكبير أحمد بنبشها ومراجعتها، وساعده في ذلك بعد زمن أخوه إبراهيم.

الخزانة تحتوي على مجموعة من كتب التاريخ والسير، ولكن إضافة إلى ذلك كانت هنالك بعض الروايات المترجمة التي كانت

تصدرها بعض دور النشر في لبنان لبعض الكتاب الروس، مثل ديسكوفيسكي وتولستوي وكذلك بعض الروايات العالمية، إضافة إلى مجموعة من روايات نجيب محفوظ وقصص يوسف إدريس وروايات إحسان عبد القدوس، كان راشد قد اشتراها من باعة الكتب الذين كانوا يوجدون على الأرصفة عند تقاطع شارع المرقب مع البطحاء، وذلك قبل زواجه بعشر سنوات تقريبًا.

نبش الخزانة تلك من قِبَل أحمد وإبراهيم ابني راشد كان يهدف أولاً للتخلص من كتب المجنون والفسق، فكان أول ضحية من تلك الكتب مجموعة أجزاء ألف ليلة وليلة، بعد ذلك احتفل الأخوان بحرق كتب صاحب أولاد حارتنا الذي كان يسخر بذلك الكتاب من الذات الإلهية والأنبياء كما أبلغهم أحد أصدقاء عمهم سعد بن عليان.

مع مرور الزمن بدأت تتغير محتويات الخزانة من الكتب، حيث تحولت من كتب في التاريخ والسير والتراجم والأدب إلى كتب في العقيدة وكثير من الكتيبات الصغيرة التي كانت توزع بالمجان، وكم هائل للتسجيلات الصوتية لعدد من المحاضرات التي تحث على الجهاد ومجابهة كل ما هو بدعة وقادم من الغرب.

التنوع والشمول الثقافي الذي كانت تتسم به محتويات الخزانة، اختفى لتمرور محتويات الخزانة حول دائرة ضيقة ولأسماء محدودة. الأمر لم يتوقف عند الخزانة فقط بل تجاوزته إلى مقتنيات البيت التي كان أول ضحاياها جهاز التلفزيون، وما لحق به من جهاز استقبال وطبق فضائي، وبعض الصور والتحف.

راشد كان يشعر بالراحة لأن ابنه ملتزمان، حيث كان يخاف عليهما أن يقعا في المخدرات، أو أن يدمنا الغزل والتدخين، إضافة

إلى أنهما بالتزامهما قد خففا عنه عبء صرف أموال على شراء سيارات حديثة أو لبس أنيق أو سفر إلى الخارج، بالمقابل كانت حمدة تخاف من ذلك التأثير الشديد من قبل عمهما سعد عليهما، هي تعرف أن هذا التأثير قد يقودهما إلى السجن أو الموت، ولن تقبل الأم مطلقاً أن ترى ولديها يسيران على خطى عمهما، تحدثت كثيراً مع راشد حولهما، الذي طمأنها أن الأمر ليس بهذه الخطورة، وهما لا يزالان شابين في مستقبل العمر، إكمال الدراسة وتوسع علاقاتهما في المجتمع سيصححان -مستقبلاً- كثيراً من أفكارهما، موضحاً أن الملحق الذي بناه في فناء المنزل والمكوّن من غرفة كبيرة ودورة مياه ملحقة بها سيكون للولدين لاستقبال أصحابهما، وهذا سيحدّ من غيابهما خارج المنزل.

تقبّلت حمدة الأمر على مضض مؤمّلة أن يعود ولداها إلى طبيعتهما، ويتقبلا كلامها بأن ليس كل العالم مشركين، وأن الإسلام دين محبة وخير، ورغبة في التأثير عليهما تحدثت مع والد زوجها عليان الذي ينز في داخله جرح ابنه سعد، مشيرةً إلى أن اثنين من أحفاده بدءا يسيران على خطى عمهما سعد.

لقد أحب عليان حفيديه أحمد وإبراهيم منذ صغرهما، كان الفارق الزمني بينهما لا يتجاوز الستين فأصبحا كأنهما توأمًا، كانا هادئين منذ صغرهما، ويحبان مشاركة الكبار في المجلس، ويحرصان عندما يأتیان إلى بيت الصالحية على الجلوس بجانب جدهما الأكبر دخيل الله يقبلان يديه ورأسه، رغم أنه عُرِفَ عنه عدم تودده للأطفال الصغار، لكون الأطفال يحتاجون صدرًا رحبًا وهذا ما يفتقده دخيل الله الضبادي.

الحب الشديد الذي يكنه عليان للولدين تحول إلى خوف وغضب، طلب منهما أن يأتيا إليه، تحدث معهما، أخبرهما أن الإسلام لا يقترن مطلقًا بالعنف، وأن عمهما سعد تعلق ببعض ممن يدعون المشيخة والإفتاء والذين كفروا الدولة وعلماء المسلمين جميعًا، صدقهم وسار على نهجهم ليصبح خارجًا على النظام وليفقد متعة الاستقرار وبناء أسرة سعيدة وقبل ذلك بر الوالدين، طمأنأ جدهما قائلين أنهما سيبحثان عما يرضي الله أولاً ورسوله الكريم صلى الله عليه وسلم ووالديهما وما فيه خير للجميع.

تمنت حمدة أن يتغيرا ولو قليلاً بعد ذلك الوعد الذي أخبرها به عمها عليان، ولكن تأثير الخزانة التي أخذت لها مكانًا بارزًا في الملحق وامتلات بالكتب وأشرطة التسجيل الصوتي أقوى، إضافة إلى جهاز الحاسب الآلي الذي أخذ حيزًا بجانبها.

أَقْبَلْ قَلِيلًا
وَأَقْبَلْ كَثِيرًا
أَنْتَ أَنْتَ مُقْبِلٌ مُدِيرٌ

(27)

لم يصعد الدكتور نوح حادثة خطبة فطيمة وموقف زوجة أخيه عاشق من عائلتهم، حيث كان قراره عدم الخوض في مشكلات عائلة الضبادي وهي كثيرة، ولم ينحز لأحد من الأخوين، فعلاقته بمانع وعاشق بقيت هادئة تمامًا، ساعده على ذلك الموقف المجتمع الذي اختاره وهو بكل تأكيد بعيد عن مجتمعات عائلة الضبادي كافة، فاقترانه بسيتا كان سببًا في تكوين علاقات مع بعض الأسر الغربية والعربية وكان نتيجة ذلك زواج أحمد شريف بابنته فطيمة، التي انتقلت مع

زوجها إلى سكن بعيد عنه قليلاً، والذي ما لبث بعد عدة سنوات أن انتقل إلى دبي شريكاً لإحدى الشركات الكبرى في مجال تقنية المعلومات، وبالطبع انتقلت معه زوجته وطفلها الحفيد الوحيد لنوح: أحمد شريف، لم يترك الرياض تمامًا بل أبقي هنالك فيلا صغيرة اشتراها باسم زوجته فطيمة، وهذا أعطى لنوح شيئاً من الطمأنينة، لكونه سيرى ابنته وحفيده ولو كل ثلاثة أشهر.

مرض زوجته سينا وسفرها إلى الولايات المتحدة الأمريكية للعلاج ومن ثم وفاتها هناك، أمر كاد أن ينهي حياة نوح لكونه تعود على الحياة الهادئة مع زوجته، وها هو الآن وحيد، لم يفكر مطلقاً بالزواج، رغم محاولات أخيه مانع وأخواته الثلاث اللاتي يلتقينه غالباً عند والده دخيل الله أثناء زيارته له.

لم يكن سبب الرفض المؤهل العلمي فهناك العديد من حاملات درجة الدكتوراه والطبيبات يتمنين الدكتور نوح، ولكن ربما علاقته بسينا التي دامت قرابة الربع قرن جعلته مخلصاً لها.

«زوجتي العلم والبحث» قال ذلك الدكتور نوح لينهي كل النقاشات، ولتفرغ للعديد من الأبحاث إضافة إلى تدريسه بالجامعة، مما أعطى له سمعة جيدة في أوساط الجامعة، ومن ثم جميع المؤسسات العلمية، وهذا تسبب في ترشيحه لمنصب قيادي، حينها خاف أن يتحول إلى كائن إداري، بعيد عن مجال البحث والدراسة، فقرر الاعتذار.

التقدير المعنوي هذا واكمه موقف عدائي من بعض أقرانه في الجامعات، بعضهم وصفه بالوصولي وأنه يطمح لمنصب وزير، أما الأغلبية ووفق تراكمات كثيرة بدأت بدراسته في أمريكا ثم زواجه من

أمريكية إضافة إلى كونه حليق الشارب واللحية وأفكاره التي يرونها مغايرة لأفقههم وتوجههم فقد ألبسوا عليه حلة العلماني، بل إن أحدهم وقد كان يرغب بالصيت والشهرة أعلن للملأ أنه يتلقى دعمًا وتشجيعًا من سفارات أجنبية، وقد أثرت عليه تلك الفرية، لا سيما والكل يعلم مدى التزامه الديني الذي لم يكن صوريًا مطلقًا، إضافة إلى ولائه لوطنه، ورغبته في أن يساهم في عملية البناء من خلال ما يقدمه من بحوث ودراسات.

كان وحيدًا، زوجته ماتت وابنته مع زوجها في دبي، وأخواه يعيشان حربًا بسوسية لا يربح فيها أحد، وزوج أخته عليان مثقل بهموم ابنه سعد الذي قال لخاله نوح ذات يوم في لقاء عند جده دخيل الله: «يا خالي، أمريكا طاعون العصر، أتمنى لو تتخلص من هذا الوباء». لم يناقشه وقتها بسبب وجود الأخوين بكر وعيسى زوجي شقيقته اللذين بدءا يطلقان النكات التي حدثت لبعض الجنوبيين، مقلدين لهجاتهم. حتى إن هذين الأخوين لم يفكر الدكتور نوح بالذهاب إليهما وتفريغ شحنة الاكتئاب عندهما لكونه يعلم أنه بسبب وضعهما الاجتماعي المتوسط ومحدودية دخلهما غرقا بمجموعة من الالتزامات المالية والديون أثرت كثيرًا عليهما، فقلّت تعليقاتهما وتعلق أحدهما بشاشات الأسهم، بينما بقي الآخر بالبيت إثر جلطة بسيطة بالدماع شلت جزءًا من الجانب الأيمن من جسده فبقي متعلقًا بأخصائي العلاج الطبيعي ليساعده للعودة إلى سابق عهده.

لا أحد، لا أحد، يمشي وحيدًا في أروقة الجامعة، هو لا يرغب أن يتحول إلى كائن إداري، هو باحث أكاديمي وحر، يجب أن تكون له الحرية في البحث والبقاء في الجامعة وأن تُتاح له كل مقومات

نجاح أبحاثه، لكن كل شيء تحول إلى كائنات إدارية، حتى قاعات البحث في المكتبات لم تُنح له في الأوقات التي يرغبها لتنظيمات إدارية، قد يتكيف مع تلك البيئة التي تبقى فيها بيروقراطية الإدارة هي المتسيدة، لكن ما قُصّ مضجعه وجعله يُصاب بالاكئاب الشديد سيرته التي يلوكها أعداؤه ووصفه بالعلمانية، ومحاولة جعل المجتمع وبالذات طلبته ينفرون منه لكونه يحمل وباء يُدعى العَلَمَة.

هو وحيد، ووالده دخيل الله وحيد، هو قادر أن يعيش بقية أيامه حرًا في عالم يحقق له طموحه العلمي، عالم العلم فيه هو السيد، وقيمة الإنسان بما يقدمه من بحوث ودراسات تخدم الإنسانية وليس بما يتبوأ من مراكز إدارية أو بهيئة التي يجب أن تعجب البعض، ليكون تابعًا يتصنع التقى والزهد وإن لم يكن كذلك.

هو وحيد، ووالده دخيل الله وحيد، ولكن دخيل الله الضبادي لا حول له ولا قوة، هو فقط رُوح لم يحن بعد صعودها إلى بارئها، أما نوح، فهو أولاً الدكتور نوح، أو بالأصح الأستاذ الدكتور نوح، أو وفق ما يطلق عليه في الغرب البروفيسور، وتلك الدرجة العلمية جاءت بعد العديد من الأبحاث والجهد المتواصل، لذا فعندما راسل عددًا من الجامعات في العالم جميعها رَحَّبَت به عقلاً عربياً مهاجرًا للغرب، محققًا كثيرًا من طموحه، وهناك عرفه الجميع بأنه عالم عربي مسلم وليس علمانيًا كما أطلق عليه بعض الجهلة.

تمنى أن يخبر أباه حين جاء يودعه أن ذلك ربما يكون الوداع الأخير، كان دخيل الله قد أوْشك أن يدخل في إحدى غيوباته المتقطعة، حيث أوْشك أن يغلق عينيه ولكن حين سمع صوت ابنه نوح فتحهما وظل بصره معلقًا باتجاه السقف، قَبْلَ نوح جبين أبيه،

كان مانع جالسًا على كرسي بجانب سرير والده.
قال له مانع: اذكر الله، إن شاء الله تروح وترجع سالم غانم.
رد عليه نوح: أبي هذا الرجل، له الفضل الكبير بعد الله أن
أنال العلم، أتمنى أن لا أكون عاقًا لوالدي أو وطني، سامحني يا يِّه.
غادر نوح حي الصالحية متجهًا إلى بلد فيه حي يتعاون أهله
على إزالة أكوام الثلج المتساقط في فصل الشتاء من أمام منازلهم
ليسمحوا للعابرين بالسير بحرية.

مَنْ أَنْتَ حَتَّى تَكُونَ
مَنْ أَنْتَ حَتَّى وَأَنْتَ الْكَائِنُ الْوَحِيدُ

(28)

فوجئ الجميع برحيل نوح إلى إحدى الجامعات الغربية ليعيش
هناك كما يتوقعون بقية عمره.

سوَّير النسيجان شعرت بأن همًّا كبيرًا قد انزاح، لا سيما وهي
تتمنى أن لا يكون لآل الضبادي أي صوت أو حضور، ولو قُدِّر أن
نوح تبوأ مركزه القيادي أو رُشِّح وزيرًا كما أشيع حوله لَحُجِّمَتْ
عائلتهم وكان الصيت للضبادي.

كان مشروعها الأسري الذي سعت بكل ما تملك لتنفيذه أن تلغي
اسم الضبادي بحيث لا يقترن باسم زوجها أو ابنيها، وقد حققت

بعض هذا الطموح، لذا بدأ يُطلق على ابنها مازن وطارق العاشق، بدلاً من مازن وطارق بن عاشق بن دخيل الله الضبادي، متوقعة أن اسم الضبادي سيسقط بعد زمن، وبالذات عندما يتزوج الابن ويصبح لهما أبناء.

مازن بن عاشق أو كما يعرفه الجميع مازن العاشق، سعت والدته لأن يكمل دراسته الجامعية في فرنسا بعد زيارة لها ذات صيف، وتحققت رغبتها، لا سيما وأنها كانت تدفع كل ما تحتاجه الدراسة والمعيشة في باريس، كانت ترغب أن تكون أسرتها مختلفة.

أما طارق الذي حظي بحب شديد من والده واهتمام زائد بنفسه، وبالذات بهندامه كأنه ورث ذلك عن والده، إضافةً إلى شيء من الوسامة وكثير من النعومة، فقد حاولت أمه أن يدرس في الخارج بدءاً من المرحلة الثانوية، ولكن لم يكن مطلقاً لديه الرغبة بالدراسة، أكمل دراسته الثانوية في إحدى المدارس الأهلية الراقية في الرياض بعد جهد من والديه وعدد من مدرسي التقوية، لينال الشهادة الثانوية بتقدير مقبول، مع امتياز بقيادة السيارات الحديثة، وقد كانت هدية نجاحه سيارة ذات قيمة تتجاوز قيمة بيت الصالحية.

طارق العاشق، الشاب الوسيم الناعم أصبح من الأسماء المعروفة في مغامرات قيادة السيارات وصعود الكيبان الرملية، أو ما يطلق عليه في الرياض التطعيس في الثمامة، إضافة إلى العلاقات الواسعة مع الشباب والفتيات، وهو ممن عُرف بقدرته على خوض أي مغامرة ولو أدت به إلى الحجز في سجن العليا، أو أخذ تعهد عليه من قبل رجال الحسبة.

الترف الذي يعيشه طارق منذ طفولته وحصار والدته وخوفها

من أن يقترب من عائلة الضبادي، واهتمام والده به لكونه يسير على خطاه عندما كان صغيراً، كل ذلك جعله لا يأبه بأحد، ولا يحرص مطلقاً أن يحضر أي مناسبة للعائلة، وقد كان حضوره ذلك اليوم بعد دعوة عمه مانع وزوج خالته عليان للاجتماع عند جده دخيل الله، كان بأمر من أمه بأن يكون مع أخيه مازن الذي جاء من باريس وقتها في إجازة قصيرة حتى يكونا مع والدهما يدافعان عنه لو أراد أحد من عائلة الضبادي التعدي عليه، حتى إنه لم يتحدث مطلقاً مع أحد من العائلة، بل اكتفى باستخدام هاتفه النقال ببعث رسائل لبعض أصدقائه وصديقاته، يخبرهم فيه أنه في مكان شعبي ممل به مجموعة من الرجال لا يعرف بعضهم على الرغم من وجود صلة القرابة التي تربطه بهم. بعض الرجال في مجلس الرجال الكبير استاء من هيئة طارق، شعره الناعم الطويل الذي بدا واضحاً خلف غطاء الرأس الشماع، وذلك العطر النفاذ الذي ذكّر البعض بغرف النوم.

كان الموقف جاداً ودخيل الله جسد متخشّب أمام الجميع رُوح باقية فقط، لذا فلم يجرؤ بكر وعيسى على إطلاق بعض الطرائف والنكت وبالذات عن الرجال النواغم أو ما يُطلق عليه في الرياض «الخكاري». ربما لمح دخيل الله بعينه الكليتين طارق وهو على هيئته تلك، وبكل تأكيد ضحك من أعماقه، وقال: «هذا ولد عاشق سوير، ما عليه شرهة، تربية حريم».

لماذا كلّما بدأتُ أبحثُ عنك

ابتعدت

لماذا كلّما ابتعدت بدأتُ أبحثُ عنك أكثرَ

(29)

شعر دخيل بالاطمئنان بعد اقتناع الجميع بملكيتـه مع زوجته سعاد
لبيت الصالحية، الأمر الذي جعله يعود إلى مفتاح السعادة كما أسماه،
هذا المفتاح هو تربية وبيع الحمام. بدأ يقضي مع الحمام أوقانا طويلةً
تجاوزت الوقت المفترض أن يقضيه مع أبنائه.

كان يستيقظ مبكراً وقبل أن يتناول فطوره يصعد لسطح البيت
ليطعم الحمام، وفي العصر يخرج الحمام من أقفاصها ويطلقها في
الجو للطيران في حركات دائرية وجماعية ومن ثم يطعمها، وقد تعود

أغلب الحمام على ذلك البرنامج اليومي.

وقد تعرّف على عدد من هواة تربية الحمام أو ما يُطلق عليه «المطيرجية» الذين استفاد من خبرتهم بصورة أشمل بحيث أصبح يضع ضوابط معينة يراعيها خلال ممارسته لهوايته، حتى إنه بدأ يراجع بحمامه وما اشتراه من طيور الطبيب البيطري، حيث كان لتلك الطيور مواعيد لأخذ اللقاحات ضد الأمراض التي تتفشى بينها.

وقد بدأت الحظيرة تزخر بالأنواع المتعددة من الحمام، منها: البلجيكي، السوداني، الصنعاني، الشماسي، القلابي، السوالوا، العراقي، الجعافر، لونق فيس، شورت فيس، الدمستك، الإسكندراني، الدنش، البلغاري، الشماعي، الهولندي، الأمريكي، الشيرازي، الصيني، القطني، والحمام الزاجل الحساوي، وقد قام بجلب بعضها من مدن المملكة المختلفة، إضافةً إلى بعض دول الخليج والدول العربية.

ونظرًا لأجواء الطقس في الرياض التي قد تؤثر على الحمام فقد أحضر جهاز تكييف صحراويًا ليقوم بتبريد المكان في فصل الصيف، فالجو الحار يتسبب في موت كثير من الحمام. ومع الخبرة بدأ يحرص على شراء صغار الحمام ثم تربيتها وبيعها حين تكبر بأسعار مرتفعة. وذات يوم فوجئ بوفاة حمامة من الأنواع النادرة لديه، أصيب بالحزن وأوشك أن يبكي، وقضى أكثر من ثلاثة أيام لا يأكل، وهذا أغضب سعاد التي بدورها أخبرته أمه أمينة لينتشر الخبر ويصل إلى والده مانع الذي لم يصدق أن قيمة الحمامة التي ماتت تتجاوز عشرين ألف ريال، وهو مبلغ يتجاوز جميع ما يوجد من أدوات زينة السيارات في محل دخيل في دوار الخرج، وبعد أن تأكد من ذلك عذره كثيرًا وشجعه على تلك الهواية الممتعة والمربحة في آن، ووعد بمساعدته

بجزء من قيمة الحمامة.

دخيل مربى ومطير وبائع الحمام في آن كسب احترام وتشجيع بعض الرجال من عائلة الضبادي، وبالذات والده مانع وعمه عليان، وهذا ما جعله يحرص على حضور أغلب المزادات في المملكة وأغلب دول الخليج، ليصبح سطح بيت الصالحية من الأماكن التي تحتوي على النادر والنفيس من الحمام، وليستضيف في مركزه مقابل الحظيرة بعض المهتمين بتربية الحمام.

ذات مساء تحدث مع سعاد التي بدأت تجلس معه إلى ساعات متأخرة من الليل في السطح على المركز ومقابل الحظيرة عن حمام اللوت العربي، كان يدخن الشيثة ويشرب الشاي الذي أعدته له سعاد، أخبرها أن ذلك الحمام أكثر الأنواع رغبة في الاقتناء والمشاركة في العالم العربي، وخصوصاً في منطقة الخليج العربي حيث يعتبر فنان هندسة الطيران الاستعراضى الأول، ويسمى هذا الحمام بالقطيفي نسبة لمنشئه مدينة القطيف في المملكة العربية السعودية، رغم أن هناك من يقول أن منشأه جنوب العراق أو إيران.

وأضاف دخيل وهو يقرأ إحدى النشرات التي أعطاها إياه أحد أصدقائه عن الحمام قائلاً: تتباين تلك السلالة في ألوان العين والريش وتتفاوت كفاءة أداء الحركات بين طائر وآخر حسب درجة التدريب، وأفضل أوقات طيرانه مع ازدياد شدة الرياح المضادة حيث يقوم بعض منه بشقبة خلفية تعتبر غير مناسبة أثناء الجو الهادي، وتعتبر عيباً واضحاً في الأداء أثناء هبوب الرياح، وتتراوح مدة طيرانه بحد أقصى لمدة 30 دقيقة، ولا تسمع ضربات الأجنحة أثناء الطيران في حمام اللوت وإنما يكون بخفة وهدوء بعكس الحمام القلاب.

لم تستوعب سعاد أغلب كلام دخيل، ولكنها تشعر بالطمأنينة والسلام عندما تشاهد الحمام، وترتاح كثيرًا للحمام ذي اللون الأبيض، الشيء الذي جعلها ترتاح للحمام وتأثيره السحري على دخيل، حيث أصبح أكثر هدوءًا.

كانت تتمنى لو أن جدّها دخيل الله يستطيع أن يأتي إلى السطح ويرى أسراب الحمام، ربما يشعر بالفرح، بالذات عندما يسمع هديلها أو صوت رفرفة أجنحتها، قد يهبه بياض بعض الحمام شيئًا من الحيوية، ربما يتكلم، ربما تعود كلماته القليلة التي فقدتها سعاد بعد إصابته بالجلطة التي حولته إلى جسد أصم. شعرت أن ذلك مستحيل، عندها قررت ذات يوم أن تطلب من دخيل أن يُعطيها حمامة لثريها جدّها.

أعطاهم مباشرة حمامة بيضاء وفق رغبتها من الأنواع الرخيصة، كانت فرحة جدًا بها، أحضرتها لجدّها وأرته الحمامة، كان دخيل الله مستلقيًا على ظهره وعيناه مفتوحتان كعادته عندما يكون مستيقظًا، قبّلت جبينه وقربت الحمامة من وجهه، قالت له: "هذا من حمام دخيل، شايف كيف هي ناعمة وبيضاء؟".

لم تكّد تكمل سعاد كلامها حتى تبرزت الحمامة على جزء من ذقن دخيل الله وصدره، قذفت بالحمامة بعيدًا، وأحضرت منديلًا وقامت بمسح وجه جدّها وهي تبكي، سمعها الممرض الشرق آسيوي وقد كان واقفًا عند باب المجلس من الخارج منتظرًا مغادرتها، جاء مسرعًا وأخبرها أن ليس هناك مشكلة أبدًا، حيث سيقوم بتنظيفه بعد قليل وتغيير ملابسه البيضاء التي أصابها براز الحمامة.

بعضٌ حاولَ أن يركضَ
بعضٌ حاولَ أن يمشيَ
بعضٌ بحثَ عن قدمينِ

(30)

أربعة هم أبناء عليان، راشد أستاذ التاريخ ومدير المدرسة الابتدائية في حي الزلفي والعقاري المتمرس ببناء وبيع وشراء العقار. وسعد الذي سلك طريقاً أوصله لسجن الحائر. وفهد الموظف البسيط في وزارة الزراعة الذي قرر أن يسكن في الخارج بعد زواجه من أخت صديق له من جنوب الرياض، فبقي بعيداً عن هموم ومشكلات عائلة الضبادي.

وحمداً الابن الأصغر الذي سلك طريقاً مختلفاً عن إخوته، حيث

حرص على إكمال تعليمه الجامعي، ثم ما لبث أن وجد وظيفة بوزارة الخارجية ليلتحق بإحدى سفارات الوطن في دولة أفريقية، والذي يحرص فيما بعد أن يكون أغلب وقته خارج الوطن، حيث لا يأتي إلا في المناسبات ولمدة أحياناً لا تتجاوز العشرة أيام.

عليان، مصاب بجرح عميق تسبب به ولده سعد، ومصاب برعب أحدثته مواقف أحمد وإبراهيم ابني راشد التكفيرية، ومصاب بحزن لابتعاد ابنه حمد الصغير الذي أثر العيش في قارة أفريقيا، ومملوء بالعتب على ابنه فهد القريب البعيد الذي فضّل مدينة الخرج سكناً وأهلها عائلة له.

كان يتمنى أن يكون أحد أبنائه عنده، يتحدث إليه ويثبه همومه، حتى ابنه راشد على الرغم من سكنه في منطقة قريبة منه، ولكن علاقته بمحسن الصخري كانت أكثر، حيث تجمع بينهما تجارة العقار، أما بالنسبة لشقيق زوجته مانع فالعلاقة بينهما قوية، ولكن بدا كل واحد منهما أكثر استسلاماً لضغوط الحياة فأصبحا لا يلتقيان إلا مساء الخميس في مجلس الرجال الكبير عند زيارتهما لدخيل الله.

لذلك فقد كوّن عليان علاقات خاصة مع بعض جيران المسجد الصغير القريب من منزلهم في حي الربوة، والذي عمل فيه مؤذناً تطوعاً منذ سنوات.

كان بالقرب من المسجد قصر كبير يسكنه أحد الضباط الذين أحيلوا إلى المعاش بعد أن تبوأ مناصب عالياً في السلك العسكري. ذلك الضابط المتقاعد هياً مكاناً لجلوس جيرانه وجيران المسجد في الوقت ذاته ممن لا يرتبط بعمل في الصباح، كان ذلك المكان ملحقاً مكوناً من غرفة كبيرة وبجانبها دورة مياه، وذلك في الجزء

القريب من المسجد من فناء ذلك القصر.

اعتاد عليان أن يجلس في ذلك المكان حتى يحين موعد صلاة الظهر فيذهب إلى المسجد لسمع جميع من بالحي من خلال مكبر الصوت عليان وهو يؤذّن معلناً دخول وقت صلاة الظهر.

ارتباط عليان بالمسجد وتعوده على الجلوس عند ذلك الضابط المتقاعد في ملحق بيته حيث يتحدث مع جيران المسجد عن كثير من الأمور الحياتية، جعله يرفض مغادرة الرياض، ويفضل البقاء ولو كان وحيداً في البيت.

بقاؤه وحيداً يتكرر دائماً في الإجازات وبالذات إجازة الصيف حيث تغادر زوجته وبناته الرياض بصحبة راشد الذي اشترى شقة في الدمام ليقضوا بعض الوقت في المنطقة الشرقية.

ذات يوم وبينما كان عليان جالساً مع بقية جيران المسجد في المكان الذي خصصه الضابط المتقاعد لهم، سمع الجميع خبراً عن اقتحام رجال الأمن إحدى الفلل التي كانت تأوي عناصر من الفئة الضالة وفق ما بثته القناة التلفزيونية.

كان قلب عليان يخفق بقوة، هو لم يتأكد من زوجته وبناته اللاتي غادرن إلى المنطقة الشرقية بصحبة راشد عن اصطحاب ولده راشد لأبنيه، حينها تلقى الضابط المتقاعد اتصالاً هاتفياً ليسأل عليان مباشرة: «ولذلك راشد ساكن في شمال الرياض؟».

أصيب عليان بالدوار، ليُنْقَلْ لأحد المستشفيات، ويبقى تحت العناية فترة من الزمن، عند سماعه عن عملية أمنية للقبض على أحد المطلوبين للعدالة.

لقد فقد حفيديه أحمد وإبراهيم اللذين آويا أحد الذين ساهموا

بقتل رجل غربي، كان ذلك المطلوب صديقاً لعمهم سعد وممن دعمهم بالكثير من الكتب والمنشورات التي امتلأت بها خزانة ذلك الملحق الذي تحول إلى أنقاض بعد مدهامة رجال الأمن له وتفجير المطلوب نفسه بقنبلة يدوية ليطال الموت الأخوين، ولتفقد العائلة وهجها.

كان حمد الابن الأصغر لعليان يتابع إحدى القنوات الفضائية التي كانت تبث أخبار تفجيرات الرياض، عندها قرر عندما ورد اسم ابني أخيه في نشرة الأخبار البقاء في أفريقيا مع زوجته المغربية وطفله، وذلك خوفاً من أن يتعلم ابنه أبجديات الموت.

هديلُ الحمامِ
صوتُ السَّلامِ
السَّلامُ حمامٌ يَحُلِّقُ بعيدًا

(31)

يا له من حلم! بل هو كابوس، وربما جاثوم، كم تمنيت حمدة
لو كان الأمر كذلك، كم تمنيت لو قضت بقية عمرها تحت وطأة
الأحلام المزعجة والكوابيس! أو بقيت مستيقظة دون نوم أو راحة
ربما كان ذلك أهون من فقدان أحمد وإبراهيم، كيف سترى دونهما
وهل ستضحك أو تبتسم مستقبلاً؟ وقد تذررت بوشاح أسود قاتم
لطح بالدم، دم البراءة،

تخيلتهما فتاة بكرًا مسلوقة الإرادة، زوجها قسرًا لرجل تمرّس

صيد النساء والإيقاع بهن، كانت تلك الفتاة تلتحف بالسواد وتنتحب، غرفة صغيرة بضوء باهت، وباب موصد، ونساء يغنين ويرقصن خارج الغرفة، أصواتهن تخنق صوتهن.

تسمع إحداهن تقول: أمامك امرأة فقدت عفتها، فلتهنأ بذلك الصيد،

يضحك ويرقصن، يمزق الغطاء الأسود، يمزق البياض، يكاد يمزق جسدها الذي أجهده مقاومة عنف الرغبة بالولوج، الطريق سالك، هم قالوا له ذلك، لذا فكم كانت رخيصة عندما قرر امتلاكها، صرخت، أنشبت أظافرها في جسده الذي بدأ يغلي: «أنت احتويتهم بالحرام لماذا ترفضين احتوائي بالحلال؟» قال ذلك وهو يلهث، متجهاً إليها، الطريق سالكة، فلماذا المقاومة؟ يزداد عنفه، يزداد ثقل جسده عليها، تبحث عن بعض هواء تننفسه، يلقيها في فمها هواء عفناً، يتقلص السواد في عينيها ليتسع البياض، بياض يُخيفها، ولون أحمر يربعه.

لم تكن الطريق سالكة، ولم تفقد الفتاة عذريتها قبل أن ينتزع تلك العذرية منها، البراءة البراءة، ولكن، كيف تكون بريئة وهي قد تدثرت بالعفن!

دم أحمر يعلن البراءة، براءة لا تعرفها كل النساء اللاتي بدأن يصرخن، أنت مع امرأة فقدت عفتها منذ زمن فلا مكان لها مع الأسوياء، لم تكن تلك الفتاة فقدت عفتها ولم يسلك أحمد وإبراهيم طريق الموت لينتهي بهما الأمر إلى بقع من الدم على جدران الملحق ومدخل البيت.

حمدة تعلم ذلك، تعرف نقاءهما، تعرف عفتها، تعرف أنهما

يحبان الله كثيرًا، ولكن لا يعرفان مطلقًا كيف يمارسان ذلك الحب بصورة صحيحة.

كانت حمدة تصرخ: إنهما بريئان نقيان، تتخيل الفتاة مرة أخرى وقد تضرجت بدماء العفة، والنساء يرقصن ويهللن.

بعض أولئك النساء أدمنّ مضاجعتها في زمن سابق، كن يبحثن عن الشهوة في جسدها البض، تعرف أنها ممارسة، وممارسة مقبلة قد تنتهي بالنشوة، قد تنتهي بالعرشة ليطفح جسدها بالعرق، ولكن يعرف أولئك النسوة أن ذلك الجسد الذي جاست تضاريسه أياديهن وشفاههن لإطفاء رغبة مؤقتة لم يألّف مطلقًا عالم الرجولة، فأردن أن يهربن من خطيئتهن ليوقعنها بخطيئة أكبر تنتهي بفنائها، ولن يقبل أحد مطلقًا سيرتها الحقيقية، ولن يعترف أحد بأنها لم تُهتِك عفتها، فقد استسلمت للرغبة لتستمتع بنشوة الالتصاق والمداعبة، جسدها أصبح مرتعًا لنشوة النساء المثليات، كما أصبح عقل أحمد وإبراهيم موطنًا لأفكار شاذة، شذوذ يجلب الراحة النفسية لمن يتصوره فعلاً سويًا، بينما هو ممارسة تنتهي غالبًا بفضيحة، كما هو الأمر عند أسرة الضبادي التي تلوّث بحادثة إيواء أحد المطلوبين.

هل ثمة عزاء لتلك الأسرة التي طأطأ كل رجالها رؤوسهم خجلًا أمام وطن لم يألّف غدر أبنائه! حتى عندما قال راشد أن ابنه قد «عُرِّرَ بهما» لم يسمعه أحد، ومن يسمع في زمن اختلط فيه الواقع بالخيال، وبدأ البعض يحيك الفتوى وفق حالة الزمان والمكان، في زمن أصبح من السهولة تغيير الرأي والموقف، حتى فتاوى الموت قالها البعض وقرر أن يمحوها بتوبة واعتذار، بينما نارها الساكنة بدأت تتسع لتحرق الأخضر واليابس.

لنيس الجميع تلك الحادثة فللميت أيا كان الرحمة، والبقاء لمن
يعرف أنه فعلاً حي، أو من يبحث عن حياة جديدة، لذا فقد كان
قرار راشد إعادة ترميم البيت الذي تدمر بفعل التفجير وبيعه ومن
ثم الانتقال بعيداً عن ذاكرة الموت.

ها أنا بجانبك

أنت هنا وأنا هناك

هل ذلك الذي بجانبني هو فعلاً أنت؟

(32)

ألقي الحزن بظلاله على بيت الصالحة، لم يعرف دخيل الله ماذا حل بحفيدي ابنته سبيكة، ربما لاحظ السواد الذي كسا وجوه الجميع، حتى إن سعاد بكت كثيراً على ابني أخيها (أحمد وإبراهيم) ولم تتحمل الأمر مما جعلها تجهش بالبكاء عند رأس جدها وتقول له: «يَّه، لا تصدق من يقول إنه بخير، ما هي سهلة موت أحمد وإبراهيم عيال أخوي راشد، أنت تعرفهم يوم كانوا صغار، مؤدبين ما يذبحون نملة، كذاب اللي يقول عنهم كلام شين».

تلك الحادثة قربت دخيل من راشد وعرفت حمدة بصدق وطيبة سعاد، وأصبحت العلاقة قوية بين أسرتي عليان ومانع، ومما خفف بعض وطء الحزن مبادرة عبد الله بن مانع بتسمية ابنه التوأم من زوجته عيبر بنت محسن الصخري، اللذين ولدا بعد الحادثة بشهر بأسماء ابني راشد (أحمد وإبراهيم) وهذا ما أسعد عليان الذي خرج من أزمته الصحية بجانب أيمن غير سوي بسبب الجلطة التي أصابته بالدماع وجعلته يخضع لعلاج طبيعى مكثف.

تضاءلت كثيراً قامه عاشق أمام زوجته سوّير التي أمرته أن يتعد عن أسرة أنجبت إرهابيين، وذكرته بمستقبل أبنائه ومصير ابنته، لذا فقد حزمت حقائبها وغادرت إلى القاهرة حين بلغها الخبر مصطحبةً ابنها طارق وابنتها رحاب، إضافةً إلى عاشق الذي خاف من لوم الناس إذا بقي في الرياض دون أن يشارك عائلته في مصابها، لذا آثر أن يكون بعيداً وأن يتصل في الخفاء بعليان وراشد معزياً ويعتذر لهما عن الحضور للرياض والمشاركة بالعزاء لارتباطه مع عدد من رجال الأعمال في مصر.

محمد بن مانع قدم مع زوجته القطيفية برفقة مولودهما الأول الذي اتفق مع زوجته على تسميته عُمر، وهذا ما أثار استغراب بعض رجال عائلة الضبادي ليتساءلوا عن أمر موافقة عائلة زوجته على هذا الاسم، لم يرغب أن يدخل معهم في نقاش أو جدل فالزمان والمكان لا يسمحان مطلقاً بذلك.

عليان الذي فقد حفيدين له، استمرراً حالة الفقد تلك بابتعاد ابنه حمد الذي اكتفى باتصال هاتفى من مقر سكنه بأفريقيا تحدث فيه معه وقدم العزاء لوالدته سبيكة ولأخيه راشد، وبرود لقاء ابنه فهد

الذي حضر مع أخوين لزوجته الجنوبية ومكثوا قرابة الساعة كجزء من تأدية الواجب.

عليان الذي ودع حفيدين واستقبل حفيدين لابنته، فقد قوة صوته الذي كان يحلق في أجواء حيهم ليعلن دخول وقت الصلاة، حالته الصحية جعلته يتساءل: هل سيكون شبيهًا بعمه دخيل الله، الذي أوشك أن يكمل قرنًا من الزمان؟ هو يعلم أنه الأكبر سنًا بعده، وهل سيعمر مثل عمه وجسده مثقل بهموم الأبناء والأحفاد؟ والده اكتفى بنصف القرن عمرًا له ليتركه وحيدًا ليزوجه عمه دخيل الله ابنته سبيكة، لذا فهو يشعر بأنه ابن لدخيل الله، الأمر الذي جعله يطلب من سائق لديه أن يأتي به. يوميًا لبيت الصالحية ليجلس بجوار عمه، ولتحضر له ابنته سعاد القهوة ومن ثم تتحدث معهما بصدق وعفوية عن كل شيء.

مَنْ أَطْلَقَ صَوْتَهُ لِلرَّيْحِ
مَنْ حَلَّقَ عَالِيَا
صَوْتُهُ أَمْ الرَّيْحُ؟

(33)

الحمام هو الصديق المسالم الذي لا يعرف العنف والإرهاب، رسول المحبين، دخیل لجأ إلى مركزه وجلس يبكي وحيداً عندما علم بموت الأخوين ابني خالته حمدة وحفيدي عمته سبيكة، كان في زمن سابق يحمل في داخله الكثير من الغضب على والدهما راشد ووالدتها حمدة، غضب لم يصل إلى حد الكراهية، ولكن هو يتذكر مدى إحساسه بالنقص عندما استغلت خالته طيبة وسذاجة زوجته سعاد لتجعلها ضمن عاملات المنزل في المناسبات لتطبخ وتعد القهوة

وبعد ذلك تطلب منها عدم الجلوس مع النساء اللاتي يزرنها، لم يتمنّ مطلقاً لهما مثل هذه المصيبة، لذا فقد كان سباقاً للوقوف معهما ومساعدة راشد في استكمال الإجراءات الرسمية التي أعقبت الحادثة، وهذا كان محل تقدير من خالته وزوجها.

بالطبع ذلك الأمر حقق له راحة أكبر، بالذات في عدم نبش الأوراق الخاصة بملكيته لبيت الصالحية، وقبل ذلك كان ابتعاد عميه عاشق ونوح، بهجر الأول للعائلة والانضواء تحت عائلة زوجته، وهجرة الثاني إلى الغرب ليحقق طموحه العلمي، سبباً لاطمئنانه ليحفزه ذلك إلى التفرغ لبيع وشراء الحمام والبحث عن الحمام النادر، ومن ثمّ التوسع ببيع وشراء بعض الطيور المنزلية، وهذا شجعه لشراء استراحة في حي السلي خصصها لهوايته الممتعة، لذا فقد شرع ببناء حظيرة كبيرة حرص على أن يكون تصميمها وفق مواصفات حديثة، بدءاً من حظيرة التربية وهي المكان الذي توجد فيه الأعشاش وأوعية التغذية، وحوض الرياضة حيث يترىض فيه الحمام ويُسمَح له بالتعرُّض لأشعة الشمس ويكون محاطاً بسلك شبك، وممرات الخدمة، وبمشورة بعض الخبراء بتربية الحمام أوضحوا له أن أغلب حظائر الحمام تأخذ الاتجاه الجنوبي الشرقي وهذا يُتيح للحمام الفرصة الكاملة للاستمتاع بالشمس أغلب الأوقات. وقد راعى أن يكون المبنى مجهزاً بحيث يسمح له بحرية الدخول والخروج وأداء العمليات اليومية بكفاءة ويسر، وقد احتوت حظيرة التربية على مجموعة من الأعشاش في شكل صفوف تقابل الحائط الخلفي وتستخدم كمكان لمبيت الحمام، وقد زود الحوش بمجاثم يستريح عليها الحمام، كما أعد في الحوش أرصفة للهبوط وهي عبارة

عن ألواح خشبية تثبت في الجوانب ويستقر عليها الحمام في أوقات الراحة، وقد قام بتغطية السقف بطبقة عازلة ومانعة لتسرب المياه، مع وضع واجهة مصنوعة من شرائح خشبية بينها مسافات تسمح بمرور الهواء، الأمر الذي يساعد على تجديد الهواء بالحظيرة، كما تساعد على إضاءة الحظائر، وخصص في الثلث العلوي من واجهة الحظيرة حافة للهبوط وهي التي يهبط عليها الحمام عند عودته من الطيران، وقد جهز الحظيرة بإضاءة كافية، ومجموعة من المعالف والمساقى وأحواض الاستحمام.

لم ينقل دخیل جميع الحمام والطيور إلى الاستراحة، بل فضّل أن تبقى حظيرة بيت الصالحية كما هي، مع تخصيصها للحمام النادر والغالي الثمن، مع بقاء مركزه الخاص الذي أصبح يرتاده في المساء فقط، أما في الصباح والعصر فغالبًا يكون في الاستراحة التي بنى فيها خيمة شعبية ووضع فيها تلفزيونًا وجهاز استقبال فضائيًا بقنوات متعددة ومفتوحة.

مقدار ما أعرّفه عنك
لا يساوي مطلقاً
مقدار ما أسمعُه عنك

(34)

أحبّ دخیل الحمام كثيراً، هذا الحب جعله يتعرف على فئات مختلفة من الناس، فذات يوم أخبره أحد الأشخاص من الذين سبق أن أشتري منهم بعض الحمام النادر ومن ضمنها حمام نفاخ، أن لديه زوجاً من الحمام النادر سوف يحضره للاستراحة فترة الظهر، طالباً منه أن يبلغ العامل الذي يقوم بحراسة الاستراحة للسّماح له بإدخال سيارته داخلها حفاظاً على الحمام، ومن ثم إغلاق بابها، فأخبر الحارس بذلك، وواعده بأن يأتي بعد صلاة العصر لمشاهدة الحمام

ومن ثَمَّ التفاوض على سعره.

هوسه بالحمام وشوقه لمعرفة نوع الحمام الذي أحضره ذلك الرجل جعله يطلب من زوجته سعاد الاكتفاء بالقهوة والتمر، وسيتناول الطعام بعد عودته من الاستراحة في المساء.

يطير الحمام ويرفرف داخل أبراجه، بينما باب الاستراحة الكبير يفتح مصراعيه إيذاناً بدخول سيارة نقل صغيرة، يغلق الحارس الباب، يترجل الرجل من السيارة ويخاطب الحارس قائلاً: اذهب إلى غرفتك سأستریح داخل الخيمة حتى يأتي دخيل في العصر «ويعلي صوته قليلاً قائلاً: أنا لا أحب الإزعاج، لدي ساعة قبل العصر أريد أن أرتاح فيها داخل الخيمة».

تُوصد الأبواب ويعمّ الصمت، يتأكد الرجل أن الحارس ذهب إلى غرفته التي يفضي بابها إلى الخارج، يفتح باب سيارته ليأذن لمرافقه بالنزول قائلاً له: لا تخف لا يوجد أحد!

يجلسان بجانب بعضهما في الخيمة.

يسأله: تريد أن تأكل شيئاً أو بعد؟

لم يجبه مرافقه الذي طأطأ رأسه مبتسماً.

يقضي الحمام حياته في أزواج ولكن عند حدوث اختلال في عدد جنس عن الآخر كأن يتفوّق عدد الذكور على عدد الإناث أو العكس، فهناك تزايد احتمال اشتراك فردين من الحمام من نفس الجنس في عش واحد، ويمكن اكتشاف ذلك من بعض الشواهد مثل وجود أربع بيضات في عش واحد، وهذا يعني أن هناك أنثيين في العش، أو خلو العش من البيض ويعني ذلك وجود ذكرين في العش، وإذا كان هناك بيض مخصب فيمكن وضعه في العش الذي

يحتوي على ذكرين حيث يمكن أن تتولى الذكور حضانة البيض ورعاية الصغار.

في تلك الخيمة كانت الأنثى غائبة وكان الحضور للذكر، ذلك الرجل أضاف إلى متعة تربية الحمام متعة غريزية، حقق فيها توفقه إلى مثله، كان يحرص على الحمام النادر، وكان أكثر ندرة شبيه رفيقه في الخيمة الذي رضي بأن يكون هو مكمّن المتعة له، يشعر ذلك الرجل بأنه امتداد لأصحاب الغلمان، ويؤكد أن تلك الممارسة ممتعة، لأن هنالك من هو جميل ويستحق أن يكون متنفسًا لكل من هم مثله، يفضلون متعة لا وجه لها مطلقًا، والقفا هو الأصل، متعة يقرر أن يتنازل فيها الشخص عن دوره الطبيعي ليتحول إلى دور ممسوخ، يكون فيها الأنثى الذي يلاطف صاحبه، يتمسح به، يدلك جسده، يفجر حمم براكينه المتفجرة، يهيئ نفسه للوضع الذي يريح صاحبه ليمتطي صهوته، لينطلق به في سباق لا جمهور له، المسافة فيه تحدّد قدرة الجسدين على خلق حوار يبدأ من حيث الانتهاء، انتهاء يرتبط بكل ما يتخلص منه الجسد من فضلات، قد ينتشي ذلك الرجل وهو يرى رفيقه الذي يصغره بعدة سنوات يتهيا له.

لم تكن هذه المرة الأولى لذلك الرجل جالب الحمام وقطعًا لن تكون الأخيرة، يتذكر أنه منذ دخوله عالم الاحتمام أراد أن يفرغ شحناته الجسدية، بحث عن جسد امرأة، لم يجد، تخيلها كل شيء لين ولدن يريحه من ذلك السائل المتراكم الذي جعله يتعد عن الآخرين، لم يكن هو الوحيد الذي يعاني من ذلك الامتلاء، ثمة آخرون تقاذفتهم الأمواج، البعض وجد شاطئه خارج الحدود فأدمن السفر، وهو قذفت به موجة بعيدًا ليجد نفسه مع مثيله، كانت تجربته

الأولى مع مثيل شجعه بأن يكون إيجابياً وسلبيًا في آن، كانت تجربة تكررت كثيرًا، ومن ثم بدأ يسلم من جسده إطار السلبية ليكون موجبًا فقط، وليجد من يرتضي أن يكون سالبًا فقط، ساعده حاجة أولئك السلبين إلى النشوة والهلوسة، فأصبح دائمًا يحمل الطعم ليصطاد السمك، كان الطعم هو حبوب الهلوسة، النشوة التي يبحث عنها جعلته يتعرف على ثقافة العالم السفلي وعالم المخدرات وطرق تجهيز العرق، وذلك المرافق الذي وافق على الامتناء ببضع حبوب الهلوسة ربما لا يعرف الكثير عن الحبوب التي يتعاطاها، أما هو فيعرف أن من تلك الحبوب الكبتاجون، الذي عرف بشكله وعلامته المميزة المرسومة عليه، وهو قرص أبيض اللون مرسوم على أحد وجهيه منحنيان متقابلان، والوجه الآخر مشقوق من منتصفه، وأحيانًا يكون لونه بني الشكل بنفس العلامات، ربما لديه بعض المعلومات بأن الكبتاجون يعتبر من العقاقير النفسية التي استخدمت في المجال الطبي لحالات الاكتئاب، وبسبب سوء استخدامه فقد أصبح من العقاقير المحظورة والمدرجة بجدول العقاقير النفسية. وبخبرته فقد استخدم أسماء الكبتاجون الشائعة والمتعارف عليها بين المدمنين والمروجين، ومنها أبو ملف، وملف شقراء، والأبيض، وأبو داب، ودفني، وداتسون، وببضاء، وقشطة، وأبو قوسين، وأبو مسحة.

لم تكن حبوب الهلوسة هي فقط الطعم ولكن ثمة بعض الرفقاء يقبل أن يكون سلبياً طيلة عمره، ذلك الرجل كغيره ممن وجد في الحمام ضالته ليخلق فوق الأجساد، عرف أن استراحة دُخيل مكان مناسب للاستمتاع بذلك الصيد الثمين، أغراه ذلك الهدوء الذي يحيط بها، وجعله يشعر بالأمان فلا عيون متلصصة، ولن يخاف من مجيء

أحد فجأة، حيث تأكد أن دخيل يفضل المقيّل في بيته بالصالحية، وقبل كل ذلك وبعده الأمر لا يتطلب وقتاً طويلاً، يكفيه بركان واحد يفجره، وعندها يغادر مع ذلك المرافق المكان، وثمة أعذار كثيرة قد يقولها لدخيل عندما يأتي بعد صلاة العصر ولا يجده ولا يجد الحمام، أبسطها بأن صاحب الحمام عدل عن بيعه، أو أنه اكتشف أن في الحمام مرضاً فقرر أن يعيده إلى صاحبه، كان ذلك الرجل حريصاً على ألا يبقى طويلاً في الاستراحة، حتى إنه قرر أن يغادر الاستراحة لتناول الغداء في مطعم الرز البخاري الذي يقبع في آخر الشارع.

أحاولُ أن أراكَ
منذُ مدّةٍ طويلةٍ وأنا أحاولُ
أملًا بأن أراكَ

(35)

اعتاد دخيّل أن يوقف سيارته أمام بوابة الاستراحة، ويستخدم بابًا صغيرًا يفضي إلى داخلها، قابله الحارس ليقول له إن صديقه بالداخل نائم، لذا فقد حرص على التسلل بهدوء حتى لا يتسبب في إيقاظ صديقه الذي أخبره بأن لديه حمامًا نادرًا سيجلبه لاستراحته، هوسه الذي تنامي في حب اقتناء النادر من الحمام جعل قلبه يخفق بعنف وهو يشاهد سيارة النقل الصغيرة داخل فناء الاستراحة وبجانب حظيرة الحمام، لم يلمح أقفاص حمام داخل السيارة بل سمع تأوّهًا

داخل الخيمة، لصوتين أحدهما ناعم يتألم والآخر صوت صاحبه جالب الحمام، كان باب الخيمة مغلقاً وثمة فرجة صغيرة يعرفها دخيلٌ تتيح مشاهدة ما بداخل الخيمة دون أن يلحظ ذلك أحد، كاد أن يصرخ عندما لاحظ ذلك الصاحب في وضع مريب مع غلام يصغره بسنوات، تمالك نفسه وابتعد دون أن يحدث صوتاً، وخرج بهدوء من الاستراحة، وطلب من حارس الاستراحة أن لا يخبر الرجل بمقدمه. استقلَّ سيارته وقفل عائداً إلى بيته، لا يدري لماذا قرر الهرب والابتعاد عن ذلك المشهد، تمنى لو أنه اقتحم خلوتهما، ولكن من سيصدق له لو وشى بذلك الرجل! سيقول بأنه متواطئ معه وقد أتاح له المكان مرات عديدة، ذهنه المشتت وقتها جعله يسلك الطريق الدائري الجنوبي ويقترب من المخرج المؤدي إلى حي الشفا، قرر أن يعود إلى الاستراحة، كان مضطرباً، هل سيوسعهما ضرباً، أم سيقاوضه بالتستر عليه ويستغل شذوذه، ويحصل على ما يرغبه من الحمام النادر! هو يعلم أنه لن يغويه ذلك المرافق مهما كانت جاذبيته، لم يتعود على استقبال القفا، وقد زاد من نفوره ما أخبره أحد أقاربه من عائلة الضبادي عن انتشار الإيدز للشاذين جنسياً، فمن المستحيل أن يرضخ لنزوة الشذوذ، تذكر خدعة ذلك الرجل له ووعدته بجلب حمام نادر، وها هو يحوّل استراحته إلى مبقى.

شعر بالغضب عندما استرجع منظرهما في الخيمة، تمنى لو لم يغادر بهدوء وقام بإفساد تلك المتعة الشاذة، الطريق طال بازدهام السيارات بالدائري الجنوبي، حادث شاحنة مع سيارة صغيرة عطلَّ السير لأكثر من نصف ساعة، كل واحد على عجلة من أمره. توقع دخيل أن صاحب السيارة الصغيرة قد يكون في طريقه لبيته

بعد عمل حكومي رتيب، ربما يرغب الوصول إلى بيته قبيل صلاة العصر ليتناول الغداء ومن ثم يقضي فترة القيلولة عصرًا، ليستيقظ ومن ثم يتجه إلى إحدى الاستراحات أو المقاهي مساءً يفرغ شحناته الانفعالية ويمارس السهر في مدينة لا تعرف متعة السهر.

أما سائق الشاحنة فبكل تأكيد يريد أن يتعد عن ذلك الزحام ليمارس السير على رتابة السواد أمامه.

مدينة الرياض لا تعرف الرتابة، تتغير دومًا، تتكاثر فيها الأشياء، البيوت، والسيارات، والبشر، مدينة تحفل شوارعها بعروض من أرجاء العالم، الناس، والبضائع، والمتاجر العالمية، والمطاعم، وحتى السيارات التي تمشي عبر أربعة مسارات في الطرق الدائرية حولها. بخبرته استطاع دخیل أن يخرج من زحام الدائري ليتجه إلى طريق الخرج شمالاً، ومن ثم يسلك مجموعة من الشوارع المؤدية إلى المخرج السابع عشر على الدائري الشرقي ليصل إلى استراحته بعد قرابة الساعة من مغادرتها.

قابله حارس الاستراحة الذي أخبره بأن صاحبه غادر المكان قبل دقائق، لم يتطرق الحارس إلى وجود مرافق مع ذلك الرجل، دخل استراحته وبحث عن حمام جديد في الحظيرة فلم يجد، ذهب إلى الخيمة وجد أعقاب بضع سجاثر في المنفضة في وسط الخيمة ولا أثر غير ذلك لهما، قرر أن يتصل به عبر هاتفه النقال فجاء صوت صاحبه معتذرًا لمغادرة الاستراحة بسبب ما لاحظته على جوز الحمام من أعراض مرضية خاف أن تنتشر بين الحمام وقرر إعادته لصاحبه، وقد وعده بجلب حمام آخر للاستراحة قريبًا، وللمرة الثانية كان سلبياً فلم يخبره عن ذلك المشهد المزري، ولكن شعر باطمئنان لكونه لم

يلحظ قدومه إلى الاستراحة، لذا فقد توقع أن يعاود الكرة بجلب آخرين حين توفرهم، ليمارس متعة باسم حمام يرمز للدعة والسلام. تمنى لو كان لجده دخيل الله القدرة على التفكير والتحدث لأخبره بالحادثة، وتمنى أن تستوعب زوجته الأمر ربما تساعده على اتخاذ قرار، ذهب إلى مجلس الرجال الكبير، كان يتوقع وجود والده وعمه عليان عند جده، ولكنه فوجئ بوجود راشد، قابله بالترحيب طالبًا من زوجته سعاد إعداد القهوة والشاي لأخيها راشد.

تحدثا عن أمور مختلفة من بينها حال خالته حمدة التي داهمها الضغط والسكر بعد حادثة ابنيهما، بعد ذلك وعندما تأكد من مغادرة سعاد مجلس الرجال، أخبر راشد بما حدث في الاستراحة طالبًا منه مساعدته للتصرف بصورة جيدة لا تسيء له ولا تؤثر على سمعته كمرتب وبائع للحمام، سأله راشد إذا كان ذلك الرجل صديقًا خاصًا له ولا يريد أن يتسبب له بضرر، فأجابته بأنه من الأشخاص الذين تعرف عليهم خلال بيع وشراء الحمام ولا يعرف عنه شيئًا.

بعد سماعه القصة طلب راشد من دخيل أن يدع الأمر له، ووعدته بأنه لن يتضرر مطلقًا، طالبًا منه أن يخبره مباشرة عندما يطلب منه ذلك الرجل المجيء للاستراحة جالبًا معه بعض الحمام، حينها نظر إلى جده قائلاً له: «عائلة الضبادي بخير يا يبه».

يعلم أنه لن يجيبه بكلمة، ولكن قد يشعر بوجود حفيدين له تصالحا بعد صراع وصل إلى مركز الشرطة وأصبحا على قلب واحد، لذا فقد فوّض راشد بأن يتصرف وفق ما يراه مناسبًا.

«صادق، عائلة الضبادي بخير، يا يبه» قال ذلك راشد وهو يلمح في عيني جده بريقًا خاصًا، قد يكون بقايا دمعة، كان الممرض الشرق

آسيوي قد أحضر علبة عصير خاصة تحتوي على مجموعة من المواد الغذائية والفيتامينات ليتناولها الجد بواسطة مصاص صغير، وضعه في فمه وبدءا يراقبان جدهما وهو يمتص ما بداخل العلبة ببطء شديد، كان الممرض قد وضع يده خلف رأس دخيل الله ليسهل عليه شرب ذلك العصير، وليمسح بعد ذلك القطرات التي تتسرب من جانبي فمه.

حمامةٌ عَشُّها صَغِيرٌ
وضيْعٌ مَتَها لَكَ
حمامةٌ عَشُّها بَنَتْهُ
لِيَتَّسِمَ بِالْوَضَاعَةِ وَيَتَّهَلَكَ

(36)

حينما بدت علامات التدبُّن تتضح على ملامح وتصرفات أحمد وإبراهيم شعر راشد كثيرًا بالراحة وشجَّعهما على المشاركة في بعض الرحلات خارج الرياض وحضور بعض المحاضرات، كان يخاف عليهما من الانحراف والوقوع في أوكار الشاذين ومتعاطي المخدرات، كانت أمنيته أن يبقيا في منطقة الوسط، وفي المدرسة عندما يقف أمام الطلبة متحدثًا كان يردد البيت الشهير:

"إِنَّ الْفِرَاقَ وَالشَّبَابَ وَالْجِدَّةَ مَفْسَدَةٌ لِلْمَرْءِ أَيَّ مَفْسَدَةٍ"

كان يعلم أن طلبة المدرسة الابتدائية التي كان يديرها لا يعرفون ماذا يعني ذلك البيت، ولم يصلوا بعد لمرحلة الشباب، وقد كان سعيداً عندما شارك في ندوة عقدتها إدارة التعليم عن معالجة الفراغ لدى الشباب، كان ذلك قبل حادثة ولديه، وقتها طالب بإيجاد أماكن ترفيهية للشباب والبحث لهم عن مهن وهوايات يفرغون فيها طاقاتهم بدلاً من تضييع الوقت بالتسكُّع في شوارع الرياض، وارتياح المقاهي المنتشرة بصورة غير صحية وبالذات عند محطة الفحص الدوري للسيارات بطريق الرياض الدمام السريع، صوته خبا كثيراً بعد حادثة ولديه، كانت صدمته الكبرى عندما شعر بعدم قدرته على إنقاذ ولديه اللذين فقدهما بسبب عدم معرفته بالطريقة التي عالجا بها الشباب والفراغ والجدة في حياتهما لكي لا يقعوا في المفسدة.

لقد كان خلف ولديه مجموعة من الرجال استطاعوا أن يكونوا شخصية خاصة لهما تختلف عن النسق المألوف، ربما يتقبلها المجتمع للصبغة الدينية التي تغطي عليها، لكن خلف ذلك نظرة سوداوية إلى الزمن المعاش، لذا فقد كان الطموح يكمن بالبحث عن نعيم دائم وحوار عيني، كان أولئك الرجال يزرعون في أعماقهما الإحساس بأن الجميع على خطأ، وهم فقط يعرفون ما هو الصحيح.

كان صدر راشد صحراء هبَّت عليها رياح شتوية باردة فكادت أن تجعلها جرداء مقفرة، بحث عن مطر فكان بارقة الأمل له السعي في إنقاذ من يشرف على الهلاك، فقد كان يبادر في البحث عن الأخطاء في تربية الأبناء ويساهم في إيجاد حلول لها، ساهم في

عدد من المؤسسات الخيرية التي تهتم باللقطاء والأيتام والأحداث ممن يقتربون جرائم صغيرة، كان لا يشك مطلقاً أن وراء كل حدث ظرف خاص أو غواية، لذا فقد كان صارماً في فضح أولئك الغواة وتعريضهم أمام المجتمع.

عندما أخبره دخيّل بحادثة الاستراحة قرر أن يتابع المشكلة، أخبر صديقاً له يعمل في الأمن الذي وافق على مداهمة الاستراحة عند اختلاء الرجل بغلام آخر، كان ينتظر اتصالاً من دخيّل، وتحقّق له ذلك.

ذلك الرجل جالب الحمام استمتع كثيراً بصحبة ذلك المرافق، كان المكان مريحاً جداً له ولمن يُحضره معه، وها هو الآن يجلب صيداً جديداً، مرافقاً صغيراً ملامحه أنثوية، من أسرة موسرة، كانت متعته أن يكون سالباً فقط، لذا لا يحتاج مطلقاً أن يبحث عن طعم ليقدمه له، فقط يُغريه بشعره الكثيف على جسده وخشونته، ولكن الأمر الذي فكر فيه بجدية ذلك الرجل هو هل يتقبل دخيّل عذر عدم جلب الحمام مرة أخرى! أيقن أن عدم جلب الحمام سيُدخله في دائرة الشك، ولكي يخرج من هذه الدائرة عليه أن يبحث عن حمام نادر فعلاً ليحلبه معه ويبقيه في الاستراحة عند مغادرته مع المرافق للاستراحة، لذا قرر أن يجلب زوجاً من السلالة الفاخرة من الحمام البلجيكي، حدّد ذلك الرجل موعداً مع مرافقه الجديد وجلب معه الحمام واتصل بدخيّل يخبره بتوفر حمام نادر لديه، ولزيادة التمويه طلب منه أن يقابله في استراحته بعد صلاة الظهر لمشاهدة ذلك الحمام، كان الرجل يقول ذلك لدخيّل عبر الهاتف المحمول وهو يتمنى من أعماق قلبه أن يعتذر عن المجيء ليستمتع بمرافقه، وهذا ما حدث عندما أخبره دخيّل بعدم

قدرته على المجيء لاضطراره للذهاب إلى الخرج لحضور مناسبة عائلية، شعر ذلك الرجل بالسعادة واتجه مُسرِّعاً للاستراحة بصحبة ذلك المرافق الجديد والحمام، أدخل سيارة النقل الصغيرة، وكرر ما قاله سابقاً لحارس الاستراحة برغبته في النوم قليلاً داخل الخيمة حتى أذان العصر، طلب منه وضع قفص الحمام الذي جلبه بجانب الحظيرة، والذهاب إلى غرفته وعدم إزعاجه، لمح الحارس الفتى ذا الجسد الأثوي، وغادر مسرعاً الاستراحة مغلقاً الباب الكبير، ليتجه إلى غرفته التي كان يوجد بها راشد مع بعض رجال الأمن، ومن ثم جاءت سيارة شرطة لتسدَّ الطريق لكي لا يهرب الرجل بسيارته، تسلل الجميع بهدوء إلى الداخل، كان باب الخيمة مغلقاً، وصوت التأوه الناعم والخشن يتصاعد مع هديل الحمام.

قِفْ هِنَا وَضَعْ نَقْطَةً
لِتَبْدَأَ سَطْرًا جَدِيدًا
لِيَكُنَ السَّطْرُ كُلُّهُ نَقَاطًا دُونَ فَوَاصِلٍ

(37)

العلاقة بين سوّير النسيجان وحمدة منقطعة منذ سنوات طويلة، وابتعاد سوّير عن العائلة أراح حمدة كثيرًا، لذا فلم تتأثر مطلقًا بعدم مجيئها للتعزية بعد موت ابنيها، أو على الأقل الاتصال الهاتفي، ولكنها تمنّت لو أن سوّير اكتفت بالابتعاد وهجر العائلة، ولكن أزعجها كثيرًا قول سوّير ذات يوم لبعض صديقاتها: «إن حمدة أم الإرهابيين». حينها غضبت كثيرًا وقررت أن تذهب وتلقمها حجرًا، لكن راشد طلب منها الترفع عن ذلك وتفويض أمرها إلى الله.

بكت حمدة كثيرًا قهرًا لموقفها الضعيف وتمنت لو عاد الزمن
بضع سنوات إلى الوراء لأغلقت على ابنها بقفص من أضلعها.
تعوّدت حمدة من الشيطان، وتراءت لها صورته يحمل كثيرًا من
ملامح سوّير بشعرها الأقرب إلى الحمرة لتعدد الصبغات التي تحاول
فيها أن تتخلص من سنوات جعلت شعرها أبيض مع ملامح أقرب
إلى السُمرة لامرأة في سن اليأس، كانت حمدة تتعوذ من الشيطان
كثيرًا، وتدعو لابنها بالرحمة والمغفرة.

بدأت تحرص على الجلوس مع أختها أمينة زوجة مانع وسبيكة
والدة زوجها، إضافةً إلى أم محمد المصرية الزوجة الثانية لمانع، كانت
تطلب من أم محمد عدم نقل الكلام أو الأخبار عن سوّير، وتتعوذ
من الشيطان عند ذكر اسمها.

حمدة المملوءة حدّ الثمالة بكراهية سوّير لم تدر نوع الشعور
الذي ألمّ بها عندما جاءها راشد بعد حادثة الاستراحة مباشرةً ووجهه
مكفهر، وأخبرها أن الشرطة ألقت القبض على طارق ولد عاشق وهو
في وضع مزر في الاستراحة. قالت حمدة: طارق ولد سوّير، أسرة
الضبادي كلهم رجال ولا مكان لشييه طارق!

الذي أراح راشد في قسم الشرطة أن المرافق لذلك الرجل
أخبرهم أن اسمه طارق العاشق، الأمر الذي أبعدهم عن دائرة العيب.
تركهم في قسم الشرطة موضحةً لصديقه رجل الأمن أن مهمته
انتهت، وعاد مباشرةً إلى بيته، مسترجعًا صورة ابنه أحمد وإبراهيم،
قائلًا: «ليرحمكما الله أيها الرجلين»، وقتها بكى كثيرًا على وضع خاله
عاشق، وموقفه عندما يأتي لقسم الشرطة ليكفل ولده، ماذا سيقول
لهم «أمة أرادت أن يكون من الجنس الثالث»؟

هل سيقول هذا من أحفاد دخیل الله الضبادي؟ ذلك الرجل القابع على سرير ليس به شيء حي إلا قلبه الذي ينبض وعينين تحاولان استيعاب زمن يتغير كل يوم.

شعر راشد أن الأمر لا يمكن السكوت عليه، أخبر زوجته، ومن ثم أخبر خاله مانع، ولولا خوفه على والده عليان وقد أو شك أن تتحسن صحته من جراء الجلطة التي أصيب بها لأخبره بالأمر.

دخیل امتزج غضبه بالبكاء وهو يقول: «يفعل فينا باستراحتي وبموافقة مني!» حاول أن يتذكر المرافق الأول، تأكد أن ملامحه لا تشبه مطلقاً ابن عمه، تساءل كيف تعرف عليه، هو يعرف أنه الوحيد من العائلة الذي يهتم بتربية الحمام، أراد أن يتصل بعمه عاشق، ولكن خاف من سويّر النسيجان لأنها بكل تأكيد ستتهمهم بإيقاع ابنها في براثن ذلك الشاذ، لذا قرر أن ينسى الأمر تمامًا، وكأن شيئاً لم يكن. وعندما سأل بعض باعة الحمام عن الحادثة قال أنه فوجئ بها مثلهم تمامًا، وأقسم بالله أنه لم يبلغ الشرطة، ولكن بالمقابل أكد لهم أن ذلك الرجل كان مصدر شبهة وقد راقبه رجال الأمن بعد عدة بلاغات عنه، بالذات اتهامه بتسويق بعض المخدرات والمنشطات، وعلاقاته المشبوهة مع بعض الشباب الناعم الذي يميل أن يكون من الجنس الثالث أو ما يُطلق عليهم في أوساط الرياض «الخكاري».

تلك الحادثة جعلت دخیل حذرًا في علاقاته مع الآخرين، فلم يسمح لأحد بالذهاب وحيدًا إلى استراحتة، وخصص المركز في سطح بيت الصالحية لاستقبال بعض الأصدقاء الخاصين والذين يثق بهم كثيرًا.

ارسُم حمامةً
ودعها تحلق بعيداً
تأمل الورقة وهي تطيرُ

(38)

على الرغم من مرور أكثر من ربع قرن على ولادة سوّير النسيجان
ابنها البكر مازن، لكن من النادر أن تكتنّى بأُم مازن، بل هي تسعد
عندما ينادونها باسمها مباشرة، أو مبدوءاً بالسيدة أو الأستاذة، وكم
تمنت كثيراً أن يُقال الشیخة سوّیر.

قوتها تنبع من شخصيتها، والجميع تابع لها، بدءاً بزوجها عاشق
وانتهاءً بأصغر عامل لديها، والبقية لا شيء، حتى دخيل الله الضبادي
والد زوجها والذي من المفترض أن تكتنّى له بعض التقدير، كانت تنظر

إليه في البدء كرجل كبير تتكرم عليه بالجلوس لدقائق قليلة والتحدث معه، أما «فطيمة» التي يقول لها الجميع يمّمه، حتى زوجة مانع وزوجة الدكتور نوح الأمريكية سيتا، فقد كانت سوّير تناديهما بأُم مانع، حينها لم تغضب الجدة فطيمة وتوقّعت أن ذلك من أعراف عائلتها، واكتفت بأن تقول التقدير بالصدور. وحقيقة كانت سوّير تكنُ ليمّمه فطيمة أو كما تسميها أُم مانع كثيرًا من التقدير لصفاتها وإنسانيتهما وحبها للجميع. سوّير النسيجان لاحظت نعومة ابنها طارق الزائدة وأحبّت فيه تلك الوسامة التي تبعده كثيرًا عن عائلة الضبادي، لذا منحتة حرية التصرف بعيدًا عن والده الذي حرصت على أن تشغله بالتجارة والأعمال والسفر حتى لا يفكر بالزواج من أخرى، أو يقترب من عائلته ويجدد علاقاته معهم. لذا فلم يكن عاشق موجودًا فعلاً في بيته ولم يلحظ وضع ولده الذي أحبه في البدء لإحساسه بأنه يذكره ببداية حياته عندما كان يهتم بنفسه وبأناقته، أما مازن فأغرته عاصمة النور بالبقاء فيها ليكون علاقة مع امرأة فرنسية تهتم بالشرق وتدرس التغيرات الحضارية في جزيرة العرب.

طارق أو «توتو» كما تعرفه أوساط الشباب عاش حياةً خاصةً جدًّا، فمنذ صغره وهو الابن المدلل لوالديه، جاء بعملية قيصرية بعد مازن ورحاب وعدد من الأجنة التي لم تكتمل أسقطتها سوّير، لتدرك فيما بعد أن ذلك الحمل هو الأخير، وليكون طارق آخر العنقود المدلّل، خافت عليه كثيرًا وخصصت له مربية أخلصت كثيرًا في عملها فأحبهته وبدأت تهتم بنظافته وأناقته، وبرغبة من سيدتها سوّير لم تسمح له باللعب مع الأطفال حتى لا يصاب بالأذى، اختارت له بعض الألعاب الهادئة التي غالبًا تلعبها البنات الصغيرات، عندها شعر بميل

لأن يشاركهن اللعب فتقبلن ذلك ببراءة، لا سيما وأن ملامحه الجميلة وشعره الطويل وأناقته تجعله قريباً منهن، وعندما كبر اقتصرت علاقته بعدد محدود من أبناء الطبقة الراقية الذين يماثلونه بالسلوك، إضافةً إلى أن سفر عائلته الدائم لخارج المملكة جعله يكون علاقات مع مجموعة من الفتيات لتتوسّع علاقته بعد ذلك بعدد من المثليين، ولتكون له تجاربه الأولى الشاذة، كان صوت الرجل واهياً في داخله، يقمعه إحساسه الأنثوي دائماً. بدأ يغار من أخته رحاب لكونها فتاة طبيعية، تحتاج الرجل كنوع من التكامل، ثمة إحساس بالنقص، الفتيات يحلمن به والرجال كذلك، وعلى الرغم من ذلك يرغب أن تكون علاقته بالفتيات من باب الصداقة، أما الرجال فهناك من يستحق أن يكون صديقاً له يمارس معه متعة اقتناء السيارات الفاخرة، وصعود الكثبان الرملية بالسيارات ذات محركات الدفع الرباعي أو ما يتعارف عليه في الرياض بالتطعيس، كان لا يجد مشكلة في الحصول على سيارات جديدة حيث توفرها له أمه سوير، أحد أصدقائه أحب تربية الحمام، بحث عن بعض الحمام النادر ولكن كان المقابل صعباً، فلكي يصل إلى الحمام لا بُد أن يطأطئ رأسه، ويرضخ لرجل يهبه الحمام بخلوة خاصة، حدّثه صديقه عن ذلك فوجدها مغامرةً، لا علاقة لطارق بالحمام مطلقاً، ولكن بعض الرجال يتسمون بخشونة خاصة وشعر كثيف يغطي أغلب أجسادهم، أمر يُغريه كثيراً، لا سيما وأن هيئته بعيدة كل البعد عن الخشونة، صديقه عرفه بذلك الرجل، مقابل ذلك حصل على هدية جوز من الحمام القلاب، شعر ذلك الرجل بأن «توتو» صيد لا يقدر بثمن، ويحتاج إلى مكان خاص فكانت الاستراحة.

لم يكن طارق يعي خطورة المغامرة، فهو الآن سلبى مع رجل

لا يعرف مطلقًا إلا أن يكون الفارس الذي يمتطي صهوة كل جسد
يغريه جسده الخشن ذو الشعر الكثيف.
مغامرة طارق تلك قُضت مضجع سويّر النسيجان التي استخدمت
كل السبل لكي تغطي على فضيحة ابنها، ليس خوفًا من العار بقدر
الخوف من أن يصل الخبر لأحد من أسرة الضبادي، وقد حمدت
ربها كثيرًا عندما خرج ابنها بكفالة في الوقت الذي كان فيه عاشق بن
دخيل الله الضبادي في القاهرة للتعاقد مع بعض الفنانين للعمل في
إحدى مؤسساتها، لذا فقد حرصت كثيرًا على التكتّم على الحادثة،
وهذا جعلها لا تسأل عن صاحب الاستراحة أو عن اسم الرجل
الذي وجد بجانب ابنها، وقد كان قرارها الأول البحث عن إحدى
المدارس العسكرية في الخارج ليتعلم أصول الرجولة، وهذا ما أثار
استغراب عاشق بعد عودته إلى الرياض، ولكنه كعادته رضح لأمرها
دون معرفة السبب.

بعَدا ارتميتُ في حُضنكَ
سمعتُكَ تقولُ
لماذا كلُّ هذا الرِّيشِ على جسدِكَ!

(39)

لم تستوعب سعاد حادثة طارق عندما سمعت دخيل يتحدث
عنها مع أخيها راشد، أخبرها دخيل بهدوء أن هنالك بعض الذكور
يرتضون أن يكونوا مثل النساء، وطارق منهم، كانت تتذكر طارق عندما
كان صغيراً، حيث كانت نعومته وأناقته تعجبها كثيراً، حينها كانت
تتمنى أن تنجب شبيهاً له، انتظرت مجيء خالها عاشق لزيارة والده،
لتسأله عن حادثة طارق، كان عاشق يسرق دقائق معدودة بعيداً عن
علم زوجته لزيارة والده.

وعندما يسافر إلى خارج المملكة كان يحرص على أن يزور والده بعد عودته من السفر مباشرةً، وهذا ما حدث عندما عاد من القاهرة، اطمأن على والده الذي بقي كما هو، يعيش حالة اليبس بين، عندها أحس بالراحة فهو لا يزال يبُرُّ والده.

وعندما قابلته سعاد فوجئ بسؤالها عن حادثة طارق، وكانت مفاجأة سعاد بأن خالها لا علم له عن الحادثة.

عندها وبحسن نية قالت له: «يقولون إنه تحوّل إلى امرأة».

هذا الكلام جعله يتذكر مشروع زوجته سوّير بيعت ابنها لمدرسة عسكرية في الخارج لتعلّم الرجولة، طبّط على رأس سعاد وردّ عليها بهدوء: «طارق رجل ولا تصدقين كلام الناس».

اطمأنت سعاد كثيرًا بعد ذلك الحوار، بينما أحس عاشق أن زوجته حولته إلى مسخ لا قيمة له مطلقًا، وقتها حرص أن يغادر سريعًا مجلس الرجال الكبير حيث يرقد والده، فمن المؤكد أن ثمة فضيحة كبيرة ستجعله سخرية للجميع.

«ماذا حدث لطارق؟».

أطلق عاشق ذلك السؤال في وجه زوجته سوّير، التي قالت له بهدوء: وماذا سمعت؟

أجابها: سمعت كلامًا يسوّد الوجه.

ومن قال لك هذا الكلام؟

بقيت سوّير هادئة وهي ترد عليه بأسئلة مماثلة، لذا فقد قرر عاشق أن يختلق مصدرًا للخبر، حيث قال لها أن أحد الجيران هو الذي أخبره بما وقع لابنه، وطلب منها أن تقول له ماذا حدث لابنهما طارق، عندها أخبرته أن أحد الرجال استدرجه بقوة السلاح إلى مكان

خارج مدينة الرياض لفعل الفاحشة به، ولكن لحسن الحظ كان ذلك الرجل مراقبًا فتم القبض عليه وأودع السجن. هدا كثيرا عاشق رغم إحساسه بأن زوجته لم تقل له الحقيقة، وإلا لماذا قررت أن ترسل ولده إلى مدرسة عسكرية في الخارج ليتعلم الرجولة!

أما سويز فقد شعرت بتوتر غريب انتابها، فهذه أول مرة تقف موقف المسئول المُحقَّق معه، وبالذات من زوجها، الأمر الآخر تأكدت من أن هنالك خبرًا تسرب عن حادثة ابنها، وهذا يعني أن الخبر في طريقه للانتشار وسيصل بكل تأكيد لعائلة الضبادي، شعرت بأن التفكير في الأمر سيرهقها كثيرًا، وتمنت لو كانت هناك علاقة تربطها بعائلة الضبادي، لتتمكن من التحدث معهم ومعرفة هل علموا بأمر ابنها، وبعد تفكير طويل رأت أن الأنسب لها هو الاتصال بسعاد لكونها الوحيدة التي لم تدخل في دائرة المشكلات من عائلة الضبادي، ربما بسبب محدودية قواها الذهنية، حددت موعدًا مناسبًا للاتصال بها في الوقت الذي توقعت فيه أن يدخل يوجد خارج المنزل، وغالبًا لا يوجد زوار لدخيل الله الضبادي.

كانت فرحة سعاد باتصال سويز النسيجان كبيرة، لذا لم تتمالك نفسها لتخبرها بمجيء خالها عاشق لرؤية جدها، وتناقل أهل الضبادي خبر تحول طارق إلى امرأة يتزوجها الرجال، كانت كلمات سعاد كطلقات الرصاص التي اخترقت جسد سويز لتمزقه إربًا، أمر ابنها طارق بلغ الجميع، وزوجها الذي كان يقول لها أنه ابتعد عن عائلته لا يزال يقوم بزيارتهم دون علمها.

أغلقت السماعه دون أن تقول إلى اللقاء لسعاد، واتجهت إلى

غرفتها داخلية في نوبة بكاء طويل، بكاء امتزج فيه الحزن والغضب والقهر، الحزن على وضع ابنها الذي أصبحت سيرته تلوكها كل السنة الناس، والغضب لممارسة زوجها علاقات مع عائلته دون علمها، والقهر الذي امتزج بكثير من الخوف، بأن يساهم أعداؤها في نشر فضيحة ابنها، وبالذات حمدة التي أطلقت عليها «أم الإرهابيين» فماذا سيكون ردها، هل ستطلق عليها «أم الخكاري» أو «أم الم...» لم تشأ أن تكمل الكلمة فمجرد التفكير بتلك الكلمة أو بوضع ولدها مع ذلك الرجل يهدم كل ما بنته في سنين عمرها كله ويُنهى هيبة «سوَّير النسيجان». بكاؤها لم ينقطع بل تحول إلى عويل وصراخ، ليصل الأمر إلى تحطيم بعض أثاث المنزل، وتمزيق ملابسها.

أحضر عاشق طيباً أعطاها بعض المهدئات، وطلب أن تكون تحت المراقبة حتى لا تعود لها الأزمة، اعتذر لها كثيراً عندما عاتبته بسبب ذهابه لعائلته، وأخبرها أن علاقته فقط بوالده الذي تعرف أنه في شبه غيبوبة بين الحياة والموت، وقال لها أنه «لن يصدق أي مخلوق أي حكاية تُحاك عن ابنها، وسيرد على ذلك بأن تلك من الإشاعات المغرضة التي تُحاك دائماً ضد الناجحين»، أراحها كلام عاشق وأحسّت لأول مرة بطمأنينة الزوجة من علاقتها بزوجها، في الوقت الذي بدأ مفعول المهديّ ينحسر لتدخل في دائرة شك من الجميع، فثمة إحساس بأن الجميع ضدها، في العمل والمجتمع، حتى داخل المنزل، ولكي تريح نفسها قليلاً قامت بتغيير جميع العاملين عندها من خدم وسائقين ومدبرات منزل، وكان من ضمنهم من عمل لديها منذ سنوات طويلة، وبعد مدة ليست بالقصيرة قررت تغيير قصرها لتنتقل بعد ذلك للسكن في مدينة جدة بعيداً عن كل الذين بدؤوا يلوكون

سيرتها في كل بقعة في مدينة الرياض كما كانت تتوقع، ليتفق فيما بعد عاشق مع ابنه مازن الذي قرر الإقامة في باريس أن يؤمن لها سكناً عنده حتى تتجاوز أزماتها النفسية المتعددة.

وفي باريس استفزها مناداة بعض المقيمين العرب له باسم «الأستاذ الضبادي» لكي يفرقوا بينه وبين مغترب سوري يدعى مازن، كانت تصرخ في وجوههم طالبةً منهم بأن يطلقوا عليه اسم مازن أو العاشق، وأن لا تسمع مرة أخرى كلمة الضبادي، لم يتوقف الأمر عند ذلك بل بدأت تتابع تحركات ابنها وعلاقاته وتفتح الرسائل التي تصله من السعودية لكي لا تكون من عائلة الضبادي، الأمر الذي جعل مازن يتصل بوالده لكي يوافق على عودتها لمدينة جدة، أو الرياض، ولكن كان عاشق يعرف أن سوّير النسيجان غادرت عقلها منذ زمن، لذا طلب من ابنه مازن وبعد توصية من أخوي سوّير أبناء النسيجان أن يختار لها منتجاً للصحة النفسية في فرنسا، لم تفقد سوّير النسيجان عقلها تمامًا، ولكن أصبح الآخر جحيماً تعاني منه في كل مكان وكل زمان، كان لديها إحساس بأن زواجها من عاشق بداية مأساتها، لم يكن العيب مطلقاً بعاشق ولا أبنائها، ولكن ذلك الرداء الذي لا يستطيعون خلعه مطلقاً والذي يجعلهم ينتمون لكوكب آخر لا علاقة لها بهذه الحياة، لذا لم تتخيل مطلقاً أن هنالك من يكون متميزاً أو ناجحاً من عائلة الضبادي، حتى عندما جاء محمد بن مانع إلى باريس ليقابل مازن ابن عمه عاشق وقد كان في طريقه إلى أمريكا لدراسة الدكتوراه في الهندسة، علقت سوّير بعد توبيخ طويل لابنها مازن بسبب مقابله لذلك العفن كما وصفته قائلةً: أكيد ذهب لدراسة فن الإرهاب.

مازن أبقى علاقته بعائلة والده جيدة ولم يرضخ لأوامر أمه، ولكن في الوقت ذاته كان يراعي حالتها النفسية، ولا يحب مطلقاً أن يستفزها، أو يغضبها، وقد تأكد أن مفتاح الغضب هو كلمة «الضبادي»، لذا فقد حاول حذفها من قاموس الكلام المتداول في شقته الصغيرة، ولكن ذات يوم فوجئت سوّير بزيارة للدكتور نوح الذي انتقل للتدريس بإحدى الجامعات الغربية وكان في زيارة لباريس، تلك الزيارة لم تكن الأولى، فقد سبق أن جاء إلى باريس أكثر من مرة وسكن عند مازن ابن أخيه الذي كون معه علاقة ودّ وتقدير، لم تعرفه سوّير، عندما طرق باب الشقة وفتحت له عاملة منزلية ليدخل ويجلس في صالة الاستقبال، كان يتوقع أن مازن موجود، لكنه فوجئ بامرأة ذات ملامح نجدية قدمت بملابس النوم، توقع مباشرة أنها والدّة مازن، لذا اعتذر وغادر الشقة مباشرة، تقديرًا لها، ومن ثم اتصل بمازن ليعتذر عن قدومه للشقة دون موعد.

بعد مغادرة الرجل للشقة سألت سوّير العاملة المنزلية عن ذلك الرجل الذي سمحت له بدخول البيت فقالت لها: «إنه الدكتور نوح». دارت بها الأرض، وصعقت؛ مَنْ جاء بهذا الضبادي! هي لم تقابله مطلقاً في الرياض، ولم تقم بتعزيته بعد وفاة زوجته الأمريكية، وليتها كانت مستعدة لمقابلة الغريب ولكن كانت في وضع لا يليق مطلقاً بسوّير النسيجان، دارت بها الأرض وبكت، شعرت أن الشقة خلّت من الأكسجين اتجهت إلى الشرفة لتلتقط الهواء، بقيت الأرض تدور بها، لمحّت امرأة تضحك في الشرفة المقابلة، أومأت لها بيدها مرحبة، رأت أنها تشبه كثيرًا حمدة، سمعت صوت ضحكات حمدة، امتلأت شرفات العمارة المقابلة بنساء الضبادي اللاتي بدأن

يضحكن منها، فتحت النوافذ، كانت تطل على مجلس يشبه إلى حد بعيد مجلس الرجال الكبير في بيت الصالحية، في الركن كان دخيل الله الضبادي جالسًا على سريره يراقبها وهو يضحك، لمحت بعض الرجال تخيلت أن بينهم مانع ونوح وعليان ودخيل وراشد، ووجوه أخرى تحمل ملامح عائلة الضبادي، شعرت بعريها، تعالت ضحكات النساء والرجال، لمحت بياضًا يحيط بالعمارة، أرادت أن تتدثر بذلك البياض، قذفت بنفسها من الشرفة لتسقط الورقة الأخيرة من سيرة امرأة رفضت أن تنضوي تحت مسمى الضبادي تدعى سوير النسيجان.

نحن ثلاثة

ربما

أنا أو أنت من في داخله شخص آخر

(40)

أصبح عاشق ثالث ثلاثة من عائلة الضبادي ممن فقد زوجته، بعد والده دخيل الله، وأخيه نوح، ذلك الفقد يختلف كثيرًا عنهما، فزوجه طوقته بقيود كبلته وجعلت منه مسخًا، حتى إنه ارتضى أن يستبدل اسم أبيه دخيل الله باسم زوجته سوير، ليتعد كثيرًا عن عائلة الضبادي. لقد أيقن أن عودة العلاقة تحتاج إلى زمن طويل، لذا فقد بقي وحيدًا في بيته بمدينة جدة، ابنته رحاب ابتعدت مع زوجها الذي يعمل مديرًا لإحدى القنوات الفضائية إلى لندن، ثم دبي، ذلك الزوج

اختارته أمها سويز بعناية قبل أزمته النفسية بسنوات، ومازن فضل أن ينتقل إلى حي آخر في باريس، ليتمكن من نسيان حادثة موت أمه، أما طارق فقد غادر المدرسة العسكرية الداخلية في أمريكا ليتزوج أمريكية وليتحول اسمه إلى (توم آش)، ليحصل فيما بعد على حقوقه الخاصة التي يرغبها.

عاشق ذلك الثري ورجل الأعمال قرر أن يستمتع بحياته، لا سيما وهو في سن المراهقة المتأخرة، لذا بحث عن امرأة تجعل منه سيدًا تعتني به وتحقق له رغباته، تزوج أكثر من مرة، وكل امرأة يتزوجها يرى أن ثمة شيئًا لا يعيه تمامًا ينقصها، لذا فلم تستمر كل زيجة أكثر من شهر ليطلقها ويبحث عن أخرى، بعد زمن تمنى لو وجد امرأة تشبه سويز.

لقد اعتاد أن يكون تابعًا لا متبوعًا، وحين لم يجد تلك المرأة بحث عن المرأة النزوة، تلك المرأة التي ترضى أن يبقيا فترة من الزمن كزوجة له لقاء مبلغ معين، شعر أن مدينة جدة مثل الرياض، علاقة الزواج لا بُد أن تتم وفق برتوكولات معينة قد تكلفه الجهد النفسي وتخرجه اجتماعيًا، عندما يتزوج امرأة بنية الطلاق دون علمها، لأنه لا بُد أن يصرخ أحدهم في وجهه قائلاً: «إن بنات الناس لسن لعبة بيديك لتطلق واحدة وتتزوج الأخرى».

قرر شراء فيلا في منطقة بحمدون بجبل لبنان، إضافة إلى شقتي القاهرة ودمشق اللتين كانت زوجته سويز النسيجان تمتلكهما، وقد حرص أن ينقلها باسمه بموجب الوكالة التي أعطتها إياه قبل سفرها إلى باريس، لذا فقد بدأ يدير أعماله التجارية من مقر إقامته المؤقت في القاهرة وبيروت ودمشق، التي أضاف إليها فيما بعد تونس والدار

البيضاء، والتي تقلّصت فيما بعدُ إلى مدينة واحدة في تونس، حيث أحسَّ بالراحة عندما قرر الإقامة في مدينة سوسة بعد تعرفه على امرأة تونسية تحمل بعضًا من ملامح سوّير وشيئًا من عنفها وكثيرًا من التعالي، ولكن بكل تأكيد لا تعرف شيئًا عن عائلة تدعى آل الضبادي».

حِينَ تَمُوتُ
دَعْنِي أَنْتَزِعُ نَفْسِي مِنْكَ
قُلْتُ لِي أَنْنِي أَقْطُنُ فِي أَعْمَاقِكَ

(41)

كان دخیل یرقب من بعید ما حدث لزوجة عمه عاشق، وما آلت إلیه حیاتہ بعد موتہا، ذات یوم كانت أخته خدیجة فی زیارة لجدها سمعها وهي تتحدث عن عاقبة العلمانیین والملحدین والکفار، موضحة أن ما حدث لزوجة عمها هو انتحار، وذكرت عاقبة من يقوم بذلك، واختتمت حديثها بقولها: إن الله ليس بغافل عن كل فعل يقوم به البشر خیرًا كان أو شرًا، ومهما حاول أي إنسان أن یختلس أو یکذب أو یسرق ویخفي ما قام به من شر فلا بُد أن یفتضح أمره. بعد أن

انتهت من كلامها أراد دخیل أن يسألها عن التزوير وادّعاء شخص بملكية شيء دون حق، ولكن خاف من سؤال عابر منها أو من أمه أو إحدى أخواته قد يفضح أمره، إضافةً إلى خوفه من تعليق من سعاد يؤجج شك الحضور بملكية بيت الصالحية، لذا فقد اكتفى بقوله: «جزاك الله خيرًا». كانت خديجة قد قررت التفرغ للدعوة وتحفيظ القرآن، وذلك بعد تجربة زواج فاشلة.

دخیل لم يتمكن بعد من نقل البيت باسمه لظروف جده الصحية، لم يكن يرغب بموته، ولكن كان يشعر بالخوف من فضيحة الكذب والتزوير، لذا فقد كان يحرص على تنفيذ كل ما يرغبه صديقه أبو عطا، الذي كان يزوره في بيته أغلب الأيام، يتناول أحيانًا طعام الغداء أو العشاء عنده. تمنى دخیل أن يتعد هذا الرجل عنه، يموت أو يُسجن أو يُنقل لمكان بعيد. في فترة سابقة وعندما كان شبه مُعدّم ويعيش تحت ضغوط الإحساس بعدم الاستقرار والخوف من بيع بيت الصالحية والبقاء دون مأوى ساعده «أبو عطا» على مغامرة تسجيل البيت باسمه وفق وثيقة مزورة، ولكن الآن حالته المادية قد تحسنت تقريبًا، فهو يملك استراحة بالسلي، إضافةً إلى أن تجارة الطيور وبالذات الحمام جعلته يعقد مجموعة من الصفقات المربحة التي حققت له بعض الرصيد في حسابه البنكي، ربما بعد زمن يستطيع أن يمتلك بيتًا بقيمة بيت الصالحية، ولكنه على الرغم من ذلك لا يستطيع مطلقًا أن يخبر الجميع بأن الوثيقة مزورة لأنه بكل تأكيد سيشك الجميع بكل ما لديه من أموال وسيعتقدون أنها جاءت بطرق غير مشروعة، وهنا ليس أمامه إلا الصبر وتحمل ذلك الرجل الثقيل «أبو عطا»، مع توخي الحذر الشديد منه.

في أوقات وجود «أبو عطا» عند دخيل، وتحديدًا في مركزه بالقرب من حظيرة الحمام، كان دخيل يطلب من سعاد مع ابتيها البقاء في الدور الأرضي وعدم الصعود للسطح، كان «أبو عطا» مصابًا بسلس بول لذا لا بُد أن يذهب إلى دورة المياه القريبة من مجلس الرجال الكبير في الدور الأرضي بشكل متكرر، الأمر الذي جعل دخيل يقرر بناء غرفة صغيرة تكون مكانًا للجلوس فترة الشتاء مع دورة مياه، وذلك في الجانب الآخر من سطح بيت الصالحية، وقد ارتاح كثيرًا من قلق حركة الغرباء في الدور الأرضي للبيت، وتلك الغرفة وجد فيها «أبو عطا» مكانًا مناسبًا لكي يقضي جزءًا كبيرًا من يومه فيه، حيث فوجئ دخيل ذات مساء برغبة «أبو عطا» بالمبيت في تلك الغرفة، لم يجد دخيل بدءًا من الرضوخ لطلبه وتهيئة مكان في تلك الغرفة لينام فيه.

مَنْ أَحَقُّ بِهَذَا الصَّمْتِ؟
أَنْتَ تَخْرُجُ مِنْ مَتَاهَةِ الصَّوْتِ
هَلْ كُنْتَ الصَّرَخَةَ؟

(42)

علاقة دخيل بأبي عطا بدأت من سوق الحمام، تعلم منه الكثير وساعده في البيع والشراء، زاره أكثر من مرة في بيت صغير بحي منفوحة، كان يعيش وحيداً دون زوجة أو أبناء، سمع أنه كان لديه زوجة وابن توفيا إثر حادث سيارة وقع بعد المزامية طريق مكة، عندها قرر أن يبقى وحيداً، كان يعمل حارساً لمدرسة بنات في حي الشفا، وبعد وفاة زوجته استغني عنه، ليسكن في البيت الصغير الملحق بالمدرسة رجل آخر مع زوجته ليعمل الرجل حارساً للمدرسة وتعمل

الزوجة مستخدمةً، كما كان وضعه مع زوجته قبل الحادث. أصبح «أبو عطا» رجلاً غامضاً عند كثير من الناس، وبالذات في سوق الحمام، ولكن وجد عند دخيل منذ لقائه الأول به كثيراً من البساطة والطيبة، توقع البعض أنه مصاب بالشذوذ، لا سيما وأنه رفض أن يقترن بامرأة بعد موت زوجته، ولكن تأكد دخيل أنه بعيد عن ذلك، كان «أبو عطا» يحذر دخيل من كثير من الأشخاص طالباً منه الابتعاد عنهم وعدم التعامل معهم ومن أولئك ذلك الرجل الذي جلب غلامين لاستراحته، وهي المرة الوحيدة التي لم يسمع دخيل مشورته لشغفه بما يجلبه ذلك الرجل من حمام نادر، كانت الحادثة وكانت الفضيحة التي أزعجته فترة طويلة.

ورغم لقاء مانع وعليان وراشد فيما بعد لأبي عطاء مرات عديدة، ولكن لم يرتح له الجميع، لون بشرته الداكن الذي لم يصل لدرجة السواد ليكون زنجياً، وفضوله لمعرفة كل شيء، وأحكامه المطلقة أحياناً جعلت الجميع يحرصون على عدم مشاركته بمجلسهم، وبالذات عندما يكونون في مجلس الرجال الكبير عند والدهم دخيل الله، وكانوا يحذرون دخيل منه، بالذات راشد الذي طلب من دخيل السعي إلى التخلص منه، وعده دخيل خيراً وقد كان في قرارة نفسه يتمنى أن يتخلص من أبي عطا، ولكن مجرد الشروع بذلك سيعلن أمام الجميع أن الوثيقة مزورة، وهذا ما يخافه دائماً.

ذات يوم طرح على أبي عطا فكرة بناء عدة غرف بجانب الخيمة والحظيرة في استراحة السلي، وقال له أن ذلك المكان أفضل بكثير من صخب الصالحية. وافق «أبو عطا» مباشرة عارضاً عليه دفع نصف تكلفة البناء كمساعدة ولتكون مبرراً لإقامته هناك إن طالت، وافق دخيل

مباشرةً، وشرع في البناء.

شعر دخيلٌ بشيء من الأمان والصدق من قبل أبي عطا، لذا لم يفكر ذات يوم أن يوقظه من نومه داخل غرفة سطح بيت الصالحية لكي يرافقه للاستراحة، ذهب مقررًا أن يعود قبل أن يستيقظ من النوم. بعد مغادرة دخيل البيت صعدت سعاد مع عاملة منزلية إلى السطح لتقوم بتنظيف الغرفة، كانت تتوقع أن دخيل ذهب إلى الاستراحة مع صاحبه، كعادته دائمًا، لذا فقد بدأت بتنظيف المركز من أعقاب السجائر وبقايا أكواب الشاي، قبل أن تتجه إلى الغرفة برفقة العاملة التي قامت بتنظيف دورة المياه.

سلس البول دفع أبا عطا للاستيقاظ ليفاجأ بامرأة بيضاء جميلة ممتلئة القوام تحمل معها بعض أدوات التنظيف، مع أخرى من شرق آسيا، عرف سريعًا أن تلك زوجة صاحبه دخيل مع خادمتها، عاد مباشرةً إلى فراشه متظاهرًا بالنوم دون أن تلاحظ ذلك سعاد التي فوجئت فيما بعد بوجود رجل نائم في غرفة السطح الصغيرة، الأمر الذي جعلها تطلب من العاملة المنزلية سرعة مغادرة السطح بهدوء قبل أن يستيقظ الرجل.

كانت مملوءة بالرعب، ذهبت مباشرةً إلى مجلس الرجال الكبير لتطلب من الممرض الشرق آسيوي مغادرة المكان لتجلس بجانب سرير جدها الذي كان يغط في سبات عميق، عندها شعرت بالاطمئنان، جاء بعد وقت قصير دخيل ليجد زوجته عند جده، توقع أنه حدث شيء له، قابلته بالبكاء معاتبته إياه بعدم إخبارها بوجود الرجل في غرفة السطح، هداً من روعها، وارتاح عندما علم أن الرجل لم يكن مستيقظًا، صعد إلى السطح ليجد الرجل لا يزال نائمًا.

عندما أحس «أبو عطا» بمغادرة المرأتين السطح ذهب مسرعًا
لدورة المياه ليقتضي حاجته، وعاد إلى فراشه ليحلم بامرأة جميلة
وبيضاء ممتلئة القوام، كان يحلم منذ زمن بعيد بنساء أقرب للسمنة
مثل سعاد، أحس بالغيرة من ذلك الرجل الذي يمتلك كل شيء أما
هو فشعر أنه على الهامش، احتاج كثيرًا لامرأة، احتاج أن تكون سعاد
زوجته.

وجهٌ وضوءٌ

شمسٌ وشعاعٌ

هل سأفقدُ الليلَ برؤيتي لوجهك؟

(43)

اعتاد مانع أن يصلّي المغرب بالمسجد القريب من بيت الصالحة، ومن ثمّ يذهب لزيارة والده دخیل الله، ليلتقي هناك بعلیان الذي يتنقل بواسطة الكرسي المتحرك، الزمن شاهد غريب، رجال في سن الشيخوخة ومدينة تتجدد، ثلاثة رجال يلتقون أغلب المساءات، تجمع بينهم ذكريات كثيرة، وصمت مطبق.

يتذكر مانع أحياناً قصيدة لأحد الشعراء يلقيها عليهما.

يأتي راشد غالباً، يتحدث عن التفجيرات في بغداد والبصرة

يزورهم في فترات متباعدة عبد الله بن مانع الذي شغل مركزاً كبيراً في الشركة التي يرأس مجلس إدارتها ويديرها غالباً من دبي أحمد شريف زوج ابنة عمهم نوح، يتحدث عبد الله عن بعض الرجال الذين يحرضون الشباب على الذهاب إلى العراق من خلال بعض الفتاوى والمحاضرات وموقفهم عندما يقرر أحد أبنائهم الذهاب إلى العراق. يحمد عليان ربه كثيراً لأن ابنه سعد لا يزال رهين سجن الدولة، حتى يعود إلى رشد، ويصل إلى قناعة بأنه لو أطلق سراحه فسيذهب حتماً إلى العراق ليفجر نفسه، وليموت كثير من الأبرياء، إن لم يرتكب تلك الحماسة داخل البلاد.

أحياناً يزداد عدد الرجال عندما يأتي بكر مصطحباً أخاه عيسى إضافة إلى بعض أزواج بنات مانع وعليان، ويأتي أحياناً بصحبة أحد الأبناء أصدقاء لهم، ويفرح الجميع عندما يأتي دخيل دون صاحبه أبو عطاء الذي لا يرحب به الجميع مطلقاً، بسبب تدخله في شئون البعض. الجميع يتذكر سخريته ذات يوم من دخيل الله عندما قال لمانع: «الشبية ساكت أكيد لو يستبدلكم الله بفتيات جميلات يمكن ترجع له الحيوية ويتكلم».

حينها لم يضحك أحد مطلقاً على سخريته، حيث بادره راشد قائلاً: «اللي يشوف وجهك يصاب بالخرس ويتمنى لو أنعم الله عليه بالعمى، روح شوف وجهك الذي، كل ما نقول عنه، لله في خلقه شئون».

عندها توقع دخيل أن «أبو عطا» لن يسكت وسيتسبب في خناقة لا يريد مطلقاً أن تقوم وبالذات في حضرة جده ووالده وعمه، مباشرة

طلب من أبي عطا الذهاب معه لمقابلة بائع لا يعرفه لديه بعض الحمام النادر، في الوقت الذي هيا أكثر من واحد من الرجال الذين كانوا في المجلس نفسه لتلقين «أبو عطا» درسًا لن ينسأه طيلة حياته.

مانع لا يدري لماذا لا يتخلص ابنه دخيل من ذلك الرجل، يعلم أن وضع ابنه تحسن كثيرًا، وهو يثق بأن سعاد تلك المرأة الطيبة ابنة أخته سبيكة وجه خير على ابنه، ربما لو لم يتزوجها لفقده منذ زمن بعيد.

تمنى كثيرًا أن يتعد عن تجارة الحمام ويبحث عن مشروع جديد بأن يفتح ورشة أو يتوسع في بيع أدوات الزينة بأن يفتح محلاً لتلميع السيارات أو تظليل الزجاج، ثمة أشياء كثيرة يستطيع أن يعملها ويجعل تربية الحمام مجرد هواية.

هو يتذكر أنه في البدء رحب بهواية ابنه دخيل وشجعه على تعويض خسارته عندما فقد حمامة نادرة، ولكن الآن تجاوز زمن الحاجة، نبت له ريش وأصبح لديه القدرة على الطيران، فكم هو جميل أن يحلق بعيدًا عن أجواء «أبو عطا» وصحبه!

بعد تلك الحادثة فكر دخيل بصورة جادة أن يبحث له عن عالم جديد، هو فقط يحتاج إلى زمن بسيط لكي ينتهي البناء في استراحة السلي، لينقل جميع الحمام الذي لديه إلى الحظيرة الموجودة في الاستراحة ويبيع النادر من الحمام، ليتمكن بقيمته مع ما توفر لديه من مال في البدء بمشروع تجاري جديد. سيحقق بكل تأكيد عدة مكاسب من ذلك المشروع قد يكون من أهمها إبعاد أبي عطا من بيت الصالحية تمامًا، وربما التخلص منه، لذا فقد قرر أن يعيد المال الذي بادر «أبو عطا» بتقديمه له عندما فكر بمشروع البناء في الاستراحة، وقد كانت

حجة دخیل لأبی عطا بأنه له الفضل فی امتلاکه لبيت الصالحية ثم
تحسنت حالته المادية، تقبل ذلك «أبو عطا» بصدر رحب مشيراً علیه
بأن يكون البناء وفق مواصفات جيدة حتى يكون مهیئاً لسكن عائلة
کاملة.

مِنْ طَرِيقٍ مَغْلِقٍ
إِلَى أَفْقٍ مَفْتُوحٍ
لَمْ أَعْرِفْ بَعْدُ كَيْفَ أَصِلُ إِلَيْكَ!

(44)

في أعماق دخيل حب كبير للحمام، حب لطائر مسالم لديه
عواالم كثيرة ومبهجة، الحب جعله يعرف أغلب أسمائها وألوانها،
ويعرف الحمام الأصيل من غير الأصيل، وكيف يقيم محاكِر الحمام
في الحظيرة ليضمن تزاوج الحمام بصورة جيدة.

معلوماته وصلت لمعرفة أصول الحمام وتسلسلها النسبي، ذات
يوم أهدها راشد كتابًا عن الحمام الزاجل، كان ذلك الكتاب الهدية
الأولى التي يرى أنها تحمل الكثير من معاني الود والوفاء بعد قطعة

دامت سنوات، كان راشد يعرف أن علاقة دخيل بالقراءة محدودة، ولكنه رأى أنه من الأجدي له أن يكتسب شيئاً من المعلومات النظرية، لا سيما وأن المعلومة يستطيع أي شخص أن يحصل عليها بسهولة من خلال جهاز الحاسب الآلي عبر الشبكة العنكبوتية، ربما علم ذلك دخيل لكنه لم يطبقه ولكن مع هذا أحضر جهاز حاسب ليستخدمه أبناءه، وجود الكتاب بيده إضافة إلى بعض المعلومات التي طلبها دخيل من أخيه عبد الله جعله يخرج بمعلومات جيدة عن الحمام الزاجل، منها أنه يعتبر سيد الحمام، وقد عرف أن لديه غريزة حب لموطنه والعودة إليه مهما بعدت المسافات الشاسعة التي يقطعها في إيصال الرسائل وخدماته خلال الحروب، ومن أهم المعلومات التي أبهجت دخيل أن الحمام الزاجل استخدم لأول مرة في الأغراض الحربية قبل الميلاد في حروب الرومان، وعرف أن للعرب تاريخاً طويلاً حافلاً مع الحمام الزاجل فهم من أوائل الأمم التي عرفت أهميته وتربيته واهتمت بأنسابه ووضعت الكتب والدراسات في طبائعه وأمراضه وعلاجه، وقد أدخل الخلفاء العباسيون استخدام الحمام الزاجل في البريد لما يمتاز به من السرعة الفائقة والسهولة في إعادة نقله إلى الأماكن التي ستطلقه مرة أخرى، حرصه هذا على اكتساب المزيد من الثقافة والمعلومات حفزه على الاهتمام بتعليم أبنائه مع تسجيل ابنته التي ورثت عن والدتها بطاء التفكير في مدرسة خاصة. عالم دخيل توسع، فبدأ يبحث عن وضع أفضل، لن يستطيع تغيير بيت الصالحية حالياً ولكن لا بد أن يأتي اليوم الذي ينتقل فيه مع زوجته وأبنائه إلى أحد الأحياء الراقية، هذا حلمه الذي أخفاه عن الجميع حتى عن الإنسانية التي أحبها كثيراً، زوجته سعاد التي وهبته

الحب وجعلت حياته سعيدة على الرغم من محدودية تفكيرها، لقد كانت الحمامة النادرة التي يخاف عليها كثيرًا ويغضب من أجلها، ويسعى جاهدًا لإسعادها، زوجته وابنة عمته في وقت واحد، البياض الذي لم يدنس زمن متغير وأحداث متلاحقة، بياض يتسم بالصدق والنقاء.

لا أحتملُ مطلقاً
أن أراكَ وحيداً
أنا الوحيدُ فقط فاستمتع برويتي

(45)

الأيام تمضي مسرعةً، مشروع البناء في الاستراحة على وشك الانتهاء.

«أبو عطا» يعرف أنه بمجرد انتقاله إلى الاستراحة لقضاء أوقاته مع دخيل سيفقد تلك الحمامة البيضاء المكتنزة، التي رآها ذلك الصباح، وذلك إلى الأبد، لكم هو يتوق إلى امتلاكها، ويحسد دخيل عليها، هي زوجته يعلم ذلك، ولكن في قرارة نفسه يرى أنه لا يستحقها، الرغبة تتأجج في داخله وأيام قليلة ومحدودة عندها

سيغادر بيت الصالحية إلى استراحة السلي، وعندها لن يكون هناك أي فرصة للوصول إليها.

كم تمنى أن يكون مثل الحمام الجلاب! ذلك النوع الذي يتمتع بخاصية فريدة جدًا، وهي قدرته على إغراء الإناث للتزواج معه بشكل عجيب وغريب مستخدمًا حركته وصوته، ليس ذلك فحسب بل إن بعض الأنواع الأصلية من ذلك الحمام يستطيع فرض سيطرته على الحمامة ومغازلتها حتى وهي راقدة على البيض، كما يمكنه المغازلة والتزواج وهو يطير في الجو. يذكر «أبو عطا» أن بعض الهواة أطلقوا على الحمام الجلاب اسم الحرامي أو حرامي الحمام.

ليكن هو الحرامي ولتكن سعاد الحمامة التي يسعى لإغرائها للوقوع في شباكه، هو لم يرها سوى ذلك اليوم الذي تركه دخيل في البيت وذهب لمتابعة البناء في الاستراحة، لذا عليه أن يخطط ليستمتع بها. كان أول قرار له أن يبقى وحيدًا في غرفة السطح، هو يعرف أن دخيل حذر جدًا، فهو لا يسمح لأي غريب بالبقاء وحيدًا في البيت مع وجود زوجته وأبنائه ووالده، وهو يتذكر أن دخيل أجابه عن سؤال له عن ذلك الممرض الشرق آسيوي وهل يبقى عند وجود زوجته أو قريباته عند جده دخيل الله، بأن الممرض يغادر مجلس الرجال الكبير بمجرد سماعه طرقة على الباب الذي يفصل بين قسمي الرجال والنساء، لكونه يعرف أن إحدى النساء ستأتي.

كانت خطة «أبو عطا» النوم في غرفة السطح، وفي الصباح التظاهر بالإرهاق والتعب والطلب من دخيل إبلاغ عائلته بأنه موجود في الغرفة حتى لا يصعد أحد للسطح ليكسب ثقة دخيل بأنه نزيه، وحتى لا يفكر دخيل بتأجيل الذهاب إلى الاستراحة ذلك اليوم، فقد

طلب «أبو عطا» من أحد أصدقائه ممن يجلبون الحمام النادر لبيعه في سوق الحمام بعرض جوز من الحمام النادر على دخيل وتحديد موعد لمقابلته لرؤية الحمام في الساعة السابعة صباحًا، مع التأكيد بأن ذلك دون علم «أبو عطا».

لم يكن لدى صاحب «أبو عطا» في ذلك اليوم الذي تم تحديده سوى طائر ببغاء يُجيد التحدث، ومالكة يرغب بيعه لظروف سفره. عندما أخبره صاحب «أبو عطا» بأمر الببغاء وأنه فرصة جيدة للربح أو للتربية في البيت وافق دخيل على لقاءه، وأخبره أنه سيأتي مع أبي عطا، لكن ذلك الصاحب طلب منه مباشرةً رغبته بعدم مجيء أبي عطا، عندها وافق دخيل على المجيء وحيدًا.

كان الموعد الساعة السابعة صباحًا، بعد استيقاظهما بساعة تقريبًا، كان قرار دخيل هو الإفطار مع أبي عطا في الاستراحة ومن ثم الذهاب لسوق الحمام وحيدًا لرؤية وربما شراء ذلك الطائر.

أبو عطا في ذلك الصباح لم يقدر أن يستيقظ، أخبر دخيل أنه يشعر ببعض التعب، طلب منه دخيل الذهاب إلى مركز صحي، لكن أبا عطا طلب منحه ساعة للنوم ومن ثم قد تتحسن حالته الصحية، عندها أخبره دخيل أنه سيذهب إلى مشوار خاص وسيأتي سريعًا، عندها طلب «أبو عطا» من دخيل أن يغلق عليه باب الغرفة ويخبر عائلته بوجوده حتى لا تصعد إحدى النساء للسطح لتفاجأ بوجوده. وافق دخيل مباشرةً وذهب إلى زوجته ليخبرها بوجود صديقه في السطح وطلب منها عدم الصعود مع العاملة المنزلية، غادر دخيل متوجهًا لبائع الطيور وقد شعر بالأمان مع بعض الخوف بأن لا يكون صاحبه متوعدًا حقًا.

تقولُ بضَعِ كلماتٍ
قلت بضَعِ كلماتٍ
هل بقيَ لديك ما تقولُه؟

(46)

منذ صغرها كانت سعاد تخاف من الرجال الغرباء، عالمها الذكوري انحصر بعدد لا يتجاوز أصابع اليدين من الرجال على رأسهم جدها دخيل الله الذي أحبته كثيرًا، يأتي بعده والدها عليان وزوجها دخيل، لذا فقد بدأت تعيش الرعب عندما بدأ الرجال الغرباء يأتون إلى زوجها في مركزه بالسطح.
بدأ الرعب يخف عندما اشترى دخيل الاستراحة وأخبرها أنه لن يأتي أحد من الرجال بعد ذلك لبيت الصالحية، بقي شيء من الخوف

مع بقاء «أبو عطا» يتردد على البيت وأحيانًا ينام في الغرفة التي بناها دخيل مقابل حظيرة الحمام، كانت تتخيل كل غريب وحشًا بشعًا قد يفترسها بمجرد مقابلتها.

بعد زيادة مرض جدها وإحضار عمها عاشق للممرض الشرق آسيوي، قاطعت مجلس الرجال الكبير لفترة من الزمن حتى أقنعها كل من زوجها ووالدها وخالها مانع أن هذا الرجل جاء لرعاية جدها، وأنه سيكون خارج البيت عند وجودها في مجلس الرجال الكبير. اطمأنت بعد فترة من الزمن ووجدت بذلك الممرض شيئًا من أخوتها، لذا بدأت تتحدث معه بعد فترة من الزمن في أمور تتعلق بجدها من وراء حجاب، وكان ينفذ لها طلباتها مباشرة.

عندما أخبرها زوجها دخيل بوجود «أبو عطا» في الغرفة طالبًا منها عدم الصعود للأعلى لتنظيف السطح وحظيرة الحمام، كانت تمنى لو بقي حتى يستيقظ الرجل ومن ثم يغادر البيت معه، لكن دخيل كان في عجلة من أمره لوجود موعد لا يريد أن يتأخر عنه، لذا قررت سعاد الذهاب إلى مجلس الرجال الكبير لتجلس بالقرب من جدها لتشعر بالاطمئنان والسلام.

كان الممرض قد غادر الغرفة بمجرد سماعه الطرق على الباب، عندها جلست سعاد على مقعد بجانب جدها الذي شعرت أنه كان مستيقظًا، بعد أن أعطاه الممرض بواسطة أنبوب صغير عصيرًا يحتوي على مجموعة من المغذيات.

ابتسمت سعاد، وطبعت قبلةً على جبينه، قالت له: «أظنك يا ييّه مستغرب مجيئي هذا الوقت، المفروض الساعة تسعة أو عشرة، أنا ما قدرت أشتغل اليوم فيه صديق دخيل اللي اسمه أبو عطا، تعرفه، مريض

ونائم فوق، أنا ما أقدر أشتغل حتى يخرج الرجل مع دخيل، إيش رأيك يا يه، دخيل طلب مني إنه يمشينا بسوق الفيصلية والمملكة، أروح معه، يقولون الرياض تغيرت كثر فيها الأسواق، أختي منيرة تقول إنها جلست أكثر من ساعة بالطريق من بيتهم بحي الخليج إلى بيتنا بالصالحية، تقول زحام وعدد الناس زاد.....».

أغمض دخيل الله عينيه، وتوقعت سعاد بأنه قد نام، لذا توقفت عن الكلام، وبدأت تتابع قناة فضائية عبر جهاز التلفزيون الصغير في ذلك المجلس الذي بقي مكانه منذ زمن ليس بالقصير، كانت القناة تبث تمارين الصباح يقوم بها بعض النساء الرشوقات مع أنغام موسيقى هادئة، تمت لو كانت تتمتع بمثل رشاقتهن، لكنها فوجئت بوجود رجال ونساء يقومون بتلك التمارين، وكانت أجساد النساء شبه عارية، عندها بدأت تتساءل: هل يفترس أولئك الرجال تلك النساء؟ ولماذا لا تخاف النساء منهم؟ ملامحهم لا تدل مطلقاً أن هنالك علاقة بينهم، لم تصل إلى إجابة لأسئلتها، فقررت تغيير القناة علّها تشاهد جزءاً من إحدى المسلسلات التي تحبها والتي تذرف دمعاً غزيراً حزناً على ما يحدث لبعض أبطالها، كانت إحدى القنوات تبث برنامجاً عن محاكمة صدام حسين، قامت بتغيير القناة مباشرة لكونها تكره السياسة، كانت قناة أطفال تبث حلقات من المسلسل الكرتوني «توم وجيري» بدأت تتابعه باستمتاع.

الصوت والضوء

ووجهك، وصوت الحمام، كل شيء يبدأ هنا

وينتهي هناك

(47)

لم يتوقع «أبو عطا» أن تسير الأمور وفق ما خطط له بتلك السهولة، الآن دخيل خارج المنزل، وكل ما سيفعله هو الاستمتاع بتلك المرأة، ومن ثم الابتعاد عنه نهائياً.

هو الآن بكامل قوته، لا أحد في البيت سوى امرأة دخيل والعاملة المنزلية، وفي الجانب الآخر ذلك الرجل المريض والممرض.

سيتحدث معها حول الوثيقة، لا بُد أنها تعرف عن أمر تزويرها، وربما تعرف لماذا زوجها ينصاع لرغباته، لا بُد أنه حدثها عن ذلك، لذا

فمن المؤكد أنها ستقدم جسدها بيسر وسهولة ليستمتع بها، ولتتخلص إلى الأبد من عبء ملاحقته لزوجها، قد تتمنّع وربما تتدخل العاملة المنزلية لتمنعه، لذلك قرر أن يحضر سكيناً معه، سيمسك بالزوجة في حالة رفضها ويهددها بالسكين ويطلب من العاملة المنزلية التزام الهدوء وإلا قام بذبحها.

الغليان يضج في داخله وجسد تلك المرأة هدفه، لو وافقت بهدوء سينتهي كل شيء ببساطة وسيكون حذرًا من أن يقذف في داخلها دليل الخيانة، مجرد متعة فقط، ومن ثم مغادرة المكان دون رجعة. طمأن نفسه متوقعًا أنها لن توافق على الفضيحة، فضيحة التزوير، وفضيحة أن يشك الناس بالثروة التي حصل عليها زوجها في فترة بسيطة، لا بُد أنها ستفهمهم، ولا بُد أن زوجها دخیل أخبرها أن الوحيد الذي يعرف أمر التزوير هو أبو عطا.

اتجه بهدوء إلى الدور الأرضي، توقع أن يقابل سعاد في المطبخ أو غرفة النوم ولكن لم يجدها، توجه إلى غرفة النساء ووجد العاملة المنزلية تقوم بكَيّ بعض الثياب، سألها عن سيدتها.

شعرت العاملة بالخوف واتجهت مباشرةً إلى مجلس الرجال الكبير لتخبر سعاد عن أمر الرجل الذي اقتحم عليها خلوتها.

لم تفهم سعاد كلام العاملة الذي بدا مضطربًا لكنها فوجئت بدخول الرجل الغريب مما دفعها أن تسحب غطاءً أبيض كان يتدثر به جدها لتغطي به، ومن ثم تهرب إلى داخل البيت، لكن الرجل استوقفها، وقال: أنا «أبو عطا» لا داعي للفضائح، لنذهب إلى الداخل أنا لم آخذ أجرة الوثيقة بعد.

لم تفهم سعاد كلامه مطلقًا، الرعب كاد أن يصيبها بالشلل،

احتمت بسرير جدها، بينما كان «أبو عطا» يقول: «أنا أفهم كل ممارسات النساء، زوجك لن يقول شيئاً، لأنه يخاف من فضيحة التزوير، فبكل هدوء لنذهب إلى غرفة النوم، بقي ساعة على موعد مجيء زوجك، متعة تساوي قيمة هذا البيت».

كادت أن تصبح قطعة من السرير الذي ينام عليه جدها بسبب الخوف، أرادت أن تصرخ، خانها صوتها، بدا الرجل ذنباً يريد افتراسها، غطت جسدها تماماً بتلك الملاءة، وتمنت لو يستيقظ جدها ربما يصرخ ويطلب ذلك الممرض لينقذها من براثن ذلك الذئب، لكنه لم يستيقظ.

إحدى القنوات التلفزيونية تبث المسلسل الكرتوني، الفظ يفكر بطريقة يمسك بها الفار، العاملة المنزلية تصرخ، يخرج السكين التي كان يخبئها، ويقول: إذا سمعت صوتاً فالنهاية الموت.

خافت العاملة واتخذت لها ركنًا بعيداً عن سيدتها، يقترب من المرأة ويحاول أن يبعد ذلك الغطاء، كان في البدء يفكر بممارسة ممتعة في غرفة النوم، ولكن رأى أن الأمر سيتحول إلى اغتصاب، لذا قال في قرارة نفسه «فليكن» المهم المتعة.

اقترب منها وحاول أن ينزع عنها ذلك الغطاء، عندها صعدت فوق سرير جدها ليحول جسده المسجى بينها وبين ذلك الرجل، لحق بها وكاد أن يطأ ذلك الجسد الواهي، وعندها خاف من جريمة القتل، تراجع ليعاود التفاوض مع تلك المرأة بتسليم نفسها ليستمتع بمعاشرتها، وإلا سيتخلص من جدها، سمعها تقول: «لا، لا، إلا جدي».

شعر بشيء من النصر، فهدأ وقال: «بدأت تعقلين، أعرف أنك

لا تريدن الفضيحة، إذا لم تسمح لي بالممارسة ففضيحة الوثيقة المزورة سيعرفها الجميع».

لم تع سعاد كلامه ولا تعرف عمّ يتكلم! لذا قالت: «أنا لا أفهم». عندها توقع «أبو عطا» أن تلك المرأة حادة الذكاء وتريد أن تبدو أمامه في دور المرأة الساذجة التي لا تعرف شيئاً، لذا فقد قال لها: «أنا ساعدته على امتلاك هذا البيت بتزوير وثيقة، أنت تعرفين ذلك، وأنا الآن أريد الأجرة منك».

كان الرعب قد امتلكها، لكنها شعرت قليلاً بالأمان عندما عاد الرجل إلى مكانه عند مدخل المجلس حتى لا تهرب العاملة المنزلية أو هي، لذا فقد استجمعت شجاعتها لتسأله: «ماذا تريد بالتحديد؟». ليجيبها بسؤال: «ماذا يريد الرجل من المرأة؟ طبخك قد شبت منه، أنا أريد جسدك، كما قلت لك ليكون أجرتي عن تزوير الوثيقة». عندها بدأت بالبكاء، توقع أن تقول شيئاً لكنها وبسبب ما سمعته من كلمات أصابها شيء من التشنج، هي لم تقدر أن تتخذ موقفاً ل تمنع ذلك الرجل من الوصول إليها، وهو توقع أنها تقوم بمناورات خاصة لتبعده، ولكن الوقت يسير بسرعة ولا بُد أن زوجها سيأتي بعد عدة دقائق لذا فقد اتجه إلى أسفل السرير ليمسك بقدميها ويسحبها، كان ثقل وزنها مساعداً لها على عدم تحركها بسهولة من على السرير.

نفذ صبر «أبو عطا» وبعنف سحب المرأة ليرتطم جسدها في الأرض ومن ثم بدأ بإبعاد الملاء التي لفتها على جسدها، ليقوم بتمزيق ملابسها، كان فأر المسلسل الكرتوني لا يتحرك مطلقاً والقط بدأ يعدُّ نفسه لوليمة كبيرة، يفتح الباب ليدخل حيوان الفقمة البحري الذي تربطه علاقة جيدة بالفأر ليقذف بالقط بعيداً، وليبعد الفار عن

مصيدة الموت.

كان مشهدًا مرعبًا لم يستوعبه دخیل مباشرةً، كانت زوجته ممددة على الأرض وأبو عطا بدأ بنزع ملابسها بينما كانت سكينًا ممددة على الأرض بجانبهما، بينما العاملة المنزلية منكشمة على نفسها في ركن المجلس كقنفذ، وجده يوشك أن يسقط من على سريره.

أخذ دخیل السكين وغرزها في جسد «أبو عطا»، الذي اتجه إلى سرير دخیل الله هربًا من الموت، تركه دخیل واتجه إلى زوجته، سال الدم على السرير من جسد «أبو عطا» ووصل إلى جسد دخیل الله الضبادي، بينما بقيت سعاد ممددةً في وسط الغرفة لا تعي تمامًا ما حدث.

صوت صراخ العاملة المنزلية جلب بعض رجال الحي إضافةً إلى ذلك الممرض الشرق آسيوي الذي شرع مباشرةً بتنظيف جسد دخیل الله مما علق به من دم، في الوقت الذي أمسك دخیل بزوجته سعاد وحملها بمساعدة العاملة المنزلية إلى داخل البيت، بعدها اتجه إلى السطح ليفتح جميع أقفاص الحمام لتحلق في سماء الرياض بحرية بعيدًا عن تلك الحظيرة في سطح بيت الصالحية، في ذلك الوقت كانت رُوح دخیل الله الضبادي تصعد إلى السماء.

انتهت

ملاحظةٌ أخيرةٌ

هذه حكاية عدة أسر في مدينة الرياض، أحداثها شبه واقعية، ولكن الأسماء من خيال الكاتب. فإذا وُجدَ تشابه، فليس مقصودًا.

الكاتب في سطور

عبد العزيز صالح الصقبي

روائي ومسرحي سعودي

الأعمال القصصية

- لا ليلك ليلي ولا أنت أنا
- الحكواتي يفقد صوته
- فراغات
- أنت النار وأنا الفراشة
- يوقد الليل أصواتهم ويملاً أسفارهم بالتعب
- أحاديث مسائية
- البهو

الأعمال الروائية

- رائحة الفحم
- حالة كذب
- طائف الأنس
- الأعمال المسرحية:
- صفقة في المرأة ومسرحيات أخرى

■
العنوان

ص . ب 89590 الرياض 11692

E-mail: asals1999@yahoo.com

: asals2005@gmail.com

اليوم الأخير لبائع الحمام

رواية

عبد العزيز الصقعبي
• رواي من السعودية



لم تكن حادثة البرجين بمستوى فاجعة فقد «يمّه» عند آل الضبادي، سعاد لم تستوعب الأمر تمامًا، حتى عندما حملت بسيارة الإسعاف إلى المستشفى، وحتى عندما حدد الأبناء موعد الصلاة عليها في مسجد الراجحي ليوارى جسدها بمقابر النسيم. لم تصدق أن عباءتها أحضرت دونها بعد أن لف جثمانها بها، أخذت العبادة من دخیل وقبلتها، وتوجهت إلى سجادتها لتحضن شرف صلاتها، كانت تنادي، «يمّه وينك؟» بكى الجميع معها، احتضنتها أمها سبيكة، وهذا من روعها والدها وخالها مانع، بينما ذهب دخیل لإحضار طبيب ليعطيها حقنة مهدئة؛ خوفًا من أن تُصاب بالجنون.

أصاب الجميع الحزن، كان التلفزيون مغلقًا، لم يفكر أحد أن يفتحه لمتابعة ردود الفعل العالمية، صاحب الحزن الذي يشعر به نوح قلق على العلاقة مع أمريكا وطريقة تعاملها مع السعوديين حين نشرت صور وأسماء من شارك بغزوة منهن كما سماها سعد بن عليان، وكان غالبيتهم من السعوديين.

ISBN 978-2-84409-937-2



9 782844 099372

نيلوفر كورم

جميع كتبنا متوفرة على الإنترنت
في مكتبة نيل وفرات. كوم
www.nwf.com

أثر

أثر للنشر
والتوزيع

